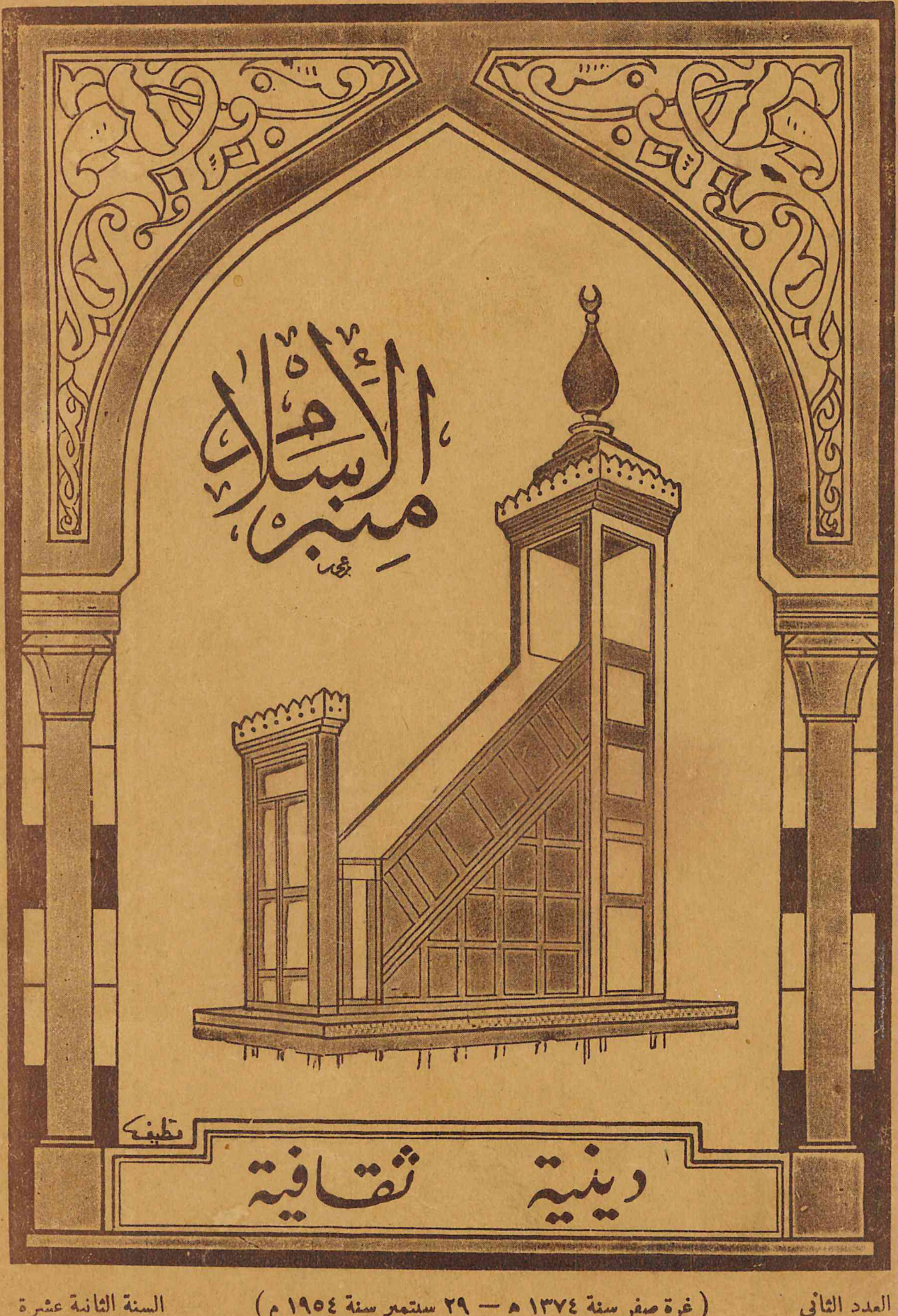

العدد الثانى (غرة صفر سنة ١٣٧٤ هـ — ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٤ م) السنة الثانية عشرة

العدد الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الثانية عشرة

منبر الإسلام
مجلة المساجد
دينية ثقافية

تصدر مع غرة كل شهر عربى

يصدرها قسم المساجد بوزارة الأوقاف

المدير ورئيس التحرير
البهى الخولى
مدير قسم المساجد

الإدارة
قسم المساجد
بوزارة الأوقاف
تليفون ٢٧٦٩٤

الاشتراكات
لمدة سنة
قرش
٤٨ داخل القطر
٦٠ خارج القطر

غرة صفر سنة ١٣٧٤ هـ — ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٥٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين والمجتمع

[الحديث الدينى الذى أذاعه السيد
أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف]

أيها السادة : السلام عليكم ورحمة الله

الدين فى المجتمع الإنسانى وقاية من طغيان الغرائز ، وعصمة من عواقب الناس وهداية فى مجال الحياة — وبالغا مابلغ تجهم المتجهمين للدين وحملتهم عليه وإحصاؤهم سيئات المتدينين ورميهم بالنفاق والكذب والاحتيال فإن للتدين آثارا طيبة فى النفس الإنسانية لاتنكر قيمتها ولا يغمط حقها ، ولن يرى هذه الآثار الطيبة على حقيقتها أو يدركها على وجهها إلا أولئك الذين يتأتى لهم أن يتصوروا مجتمعا تخلص من سلطان الدين تخلصا تاما أو انحل عن ربقته انحلالا كاملا — وسوف يرى مثل هذا الإنسان فى مثل ذلك المجتمع مجموعات من البشر تعيش فى محيط تحكمه الغرائز وتتحكم فيه الأثرة والأنانية إلى أقصى الغايات وأبعد الأمداء ، والمجتمع البهيمى الصرف أدنى

إلى التقدير وأقرب إلى الطمأنينة والتراحم من المجتمع الإنسانى إذا ألقى بأزمته إلى الغرائز تصرفه متى شاءت وكيف شاءت وأنى شاءت — وذلك أن الحيوانات فى مجتمعاتها تسير فى حياتها على هدى من طبائعها وغرائزها بغير تعقل ولا تأول فتجىء تصرفاتها متسقة متماثلة تجرى إلى غاية واحدة وعلى سنن معين فهى أشبه شىء بالآلات تمضى فى عملها مضيا متحدا لا أثر فيه للتجديد ولا للابتكار ولا للتناقض ولا للاختلاف ، فأما الإنسان فإن له إلى جانب الغريزة الحيوانية عقلا محتالا وفكراً متأولا مهما كانت حياة التخلف والجمود التى يحياها — فإذا خلت حياة الإنسان على هذه الصورة من قوة غيبية يخشاها ويخضع لها فإن تصرفاته يومئذ سوف تستمد وجودها من الرغبات فى دفع الغرائز والشهوات مضافا إلى ذلك العقل المحتال والفكر المتأول ومثل هذا المجتمع الإنسانى أخس حياة وأوضح فوضى وأبين شقاء من مجتمع الحيوان فى الغابات .

على أننى لا أكاد أتصور مجتمعا إنسانيا ينفصل عن الدين بمعناه العام انفصالا كاملا ، فإن الدين بمعناه العام يستند فى الإنسان إلى غريزة من أقوى غرائزه وهى الغريزة التى يعبر عنها علماء النفس بغريزة حب الخضوع ، ولهذه الغريزة سلطان بين لا يقل عن سلطان غريزة حب التسلط فى النفس الإنسانية ، ولهذا كان من غير الممكن أن ينفصل الإنسان عن الدين وكان انفصاله عن الدين انفصالا عن حكم من أحكام غرائزه القوية التى لا يملك — مهما قويت إرادته — الانفصال عنها ، وقد لاحظت اللغة العربية بما فيها من دقة الحس وشدة البصر هذه الصلة القوية القائمة بين التدين فى الإنسان وبين غريزة الخضوع فيه فوضعت لهذا المعنى كلمة « دين » وكلمة الدين تدل حيثما وجدت على معنى يستتبع معنى الخضوع بل توشك كل كلمة مؤلفة من الدال والياء والنون أن تدل على معنى الخضوع أو على معنى يشبه معنى الخضوع ، ولنأخذ على سبيل المثال كلمة « دين » بفتح الدال وسترى أن هذه الكلمة يشيع فى جوها معنى الخضوع ، والجو الذى تبدو فيه هذه الكلمة يتألف من الدائن والمدين والدائن أبدا مرفوع الرأس بادى الطغيان ، والمدين أبدا خفيض الرأس غضيض الطرف بادى الضراعة والخضوع — ومن هنا قيل فى الأثر الصادق « الدَّين هم بالليل وذل

بالنهار » . بل إن بعض أصحاب البصر باللغة ليرون أن كلمة مدينة تشير من بعيد إلى معنى الذل والخضوع — والمدينة كلمة استعملتها ألسنة اللغة والعرب ليدلوا بها على المكان الذى يتخذه الناس مُقاما لهم بعد أن ينفصلوا عن البادية ويتركوا حياة الشموخ والاعتزاز فى ربوعها إلى حياة الضراعة والاستسلام فى الحواضر — ومن هنا كان أسلافنا العرب يرون الحياة فى المدن مجلبة لانكسار النفس كما يرون الحياة فى البوادى مثابة لشموخها واستغلاظ عودها — وعلى هذا النحو نكاد نجد معنى الخضوع والاستسلام أو مايشبه هذا المعنى فى كل كلمة تشتمل هذه الأحرف الثلاثة : الدال والياء والنون التى تتألف منها كلمة « الدين » . . .

الدين إذن فى النفس الإنسانية فطرة لازمة بهذا المعنى العام لكلمة دين وهو تلك الصلة الغائية القائمة بين الناس وبين تلك القوة الغيبية التى يخضع الإنسان فى كل أطواره لها ويراها أبدا أعلى وأجل من قوة البشر ، ولم يكف الإنسان يوما عن التطلع إلى تلك القوة الغيبية التى يسميها الله فذل لها وتخاضع بين يديها وراح يقدم لها مراسيم العبادة فى كل مظهر رهيب يدل عليها من الشمس المشرقة والنار المحرقة . وفى كثير من مظاهر الكون التى يخشاها ويؤمل فيها وكان ذلك استرضاء لغريزة حب الخضوع بين جنبيه — ومن هنا كانت اللغة العربية — كما قلت — موفقة كل التوفيق فى اختيار كلمة الدين ليدلوا بها على تلك الصلة القائمة بحكم الفطرة بين الإنسان وخالق الإنسان .

وإذا كان التدين فى الإنسان بهذه القوة من الرسوخ والثبات فإن مما لا يجوز أن يهمل الناس ، اعتبار الدين فى الأمم الناهضة أو الأمم التى تتفتح لها أبواب النهوض ، فإن الغرائز وما تجرى عليه أحكام الغرائز الإنسانية لا خير أبدا فى أن تقاوم ولكن الخير كل الخير فى أن تساير لكى توجه توجيها نافعا فى خدمة النهضات وصيانتها وإسباغ ظلال الأمن والسكينة عليها ، وإلا فإنهم ينفقون جهدهم هباء ويضيعون وقتهم عبثا ويحاولون أن يتصوروا الحى بغير روح والمكان بغير مكين أن هم حاولوا أن يتصوروا دينا بغير مجتمع أو مجتمعا بغير دين ، فمن الخير ومن الحق معا لأولئك الذين يقاومون الدين من حيث هو مبدأ إنسانى أن يكفوا

عن هذا التحليق المخاطر فى الجو البعيد ، وأن يمسكوا عن استهداء الدليل الحائر فى الظلام الشديد ، فإن البشرية لن تنفصل عن الدين إلا إذا انفصلت عن فطرتها ، ولن تصم عن ندائه إلا إذا صمت عن نداء غرائزها وهيهات ذلك ثم هيهات ، على أنه لو قدر للمجتمع البشرى أن ينفصل عن سلطان الدين انفصالا تاما لقدرت له الحياة أبشع صورة وأجش صوتا وأحلك مسلكا ، ولكان أضيق الناس بها أولئك الخياليون الذين يعيشون فى أجواء النظر السطحى ويتناولون الأمور تناول المخمور بظن أنه فى واقع الحياة وما هو من ذلك فى ورد ولا صدر ولا فى قليل أو كثير .

إن الدين ضرورة اجتماعية لازمة يأوى إليها المحروم ليتعزى ويلوذ بها الخائف ليأمن ، ويصغى إليها الجشع ليقنع ، ويقبل عليها المدبر عن الحياة ليجد عندها السكينة والسلام ، وما زالت البشرية منذ عرفت طريقها الواعى إلى الحياة تتحرك إلى غاياتها الاجتماعية النافعة بدافع من الرغبة أو الرهبة ، والرغبة الوادعة القانعة ، والرهبة الخائفة المفزعة فى يد الدين وحده وعنده وحده وإليه وحده ، ومهما أتقن القانون الوضعى واضعوه ، ومهما أحاطوه بالثواب المغرى والعقاب الرادع فإنه عاجز عن تقويم النفوس وتهذيب الأخلاق ، ومهما وضع الناس تبادل المنافع بينهم موضع الدافع إلى صنع الجميل وأداء الواجب فإن هذه المنافع مهما امتدت آفاقها عاجزة أكبر العجز عن أن تنشط كل الهمم وتستوعب كل الأفراد — على أن توقع المنفعة الذاتية من كل عمل خير يقدمه المرء إلى مواطنيه من شأنه أن يجعل الإنسان يتحرك إلى عمله فى دفع المنفعة كما تتحرك الآلة فى دفع البخار ، والأمة التى يكون أفرادها على هذا القدر من النفعية والأثرة والوصولية أمة مرهون وجودها بكثرة أبواب المنافع فيها ، وقد تعجز الأمة عن أن تقدم لأبنائها أجرا على جهودهم وتقتضيهم المزيد من العمل الجاهد والتضحية الشاقة فكيف يصنع أبناؤها إذا لم يتقاضوا منها أجرا ، ولم يجدوا عندها ذكرا ولم يكن فى مسامعهم صوت الدين يهتف بمشاعرهم فيهزها هزا ويخاطب قلوبهم فيرجها رجا بمثل قول الله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

إن الدين إذا أحسن أصحابه فهمه والقيام عليه استطاعوا أن يفتحوا به أعينا عميا وقلوبا غلفا ، وآذانا صما ، واستطاعوا أن يجعلوا الحياة به خفيفة الحمل يسيرة التكاليف ثم استطاعوا أن ينظموا به صفوفهم ويصونوا أمنهم ، ويحموا تاريخهم ويتخذوا منه أضواء سواطع تهديهم سواء السبيل ، وربما وجد فى الناس من يرى الدين شكلا لا جوهر له وخداعا لا حقيقة معه ، والأمر فى ذلك كذلك فى كثير من الأحيان ، ولعل أبا الطيب المتنبى صور هذا المعنى تصويرا أوفى به على الغاية وهو يقول :

إذا ما الناس جربهم لبيب فإنى قد أكلتهمو وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا

ولكن هل كان الخداع دائما فى دنيا الناس باسم الدين — اللهم «لا» واللهم إن الخداع باسم الدين داء يرجى معه البرء وعلة يتوقع معها الشفاء ولكل ضمير غائب أوبة ولكل دين مريض صحوة — فأين منا الخداع باسم الإنسانية حينا ، وباسم الديموقراطية حينا ، وباسم رعاية الأمم المتخلفة حينا ، وهذه أدواء لا علاج لها ولا برء معها ، على أنه إذا كان الدين « أى دين » مسيحية كان أم إسلاما أم يهودية يمكن أن يكون يوما ، أداة خداع ووسيلة احتيال فإن من الممكن أن يكون بحسن التوجيه وحسن الأخذ للأمور أداة صلاح ووسيلة استقرار .

ولعلى قادر أن أتابع هذا الحديث فى كلمة قابلة إن شاء الله ، والله الموفق والمستعان. والسلام عليكم ورحمة الله .

هداية القرآن

الفتح المبين والفتح القريب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

قال الله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » .

وقال جل شأنه : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

« سورة الفتح »

نزلت هذه السورة ليلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عائد من الحديبية إلى المدينة سنة ست من الهجرة فى مكان يسمى (كراع الغميم) وهو واد أمام عسفان بين مكة والمدينة ولما نزلت هذه السورة قال صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت على الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » فقال المسلمون هنيئاً لك يا رسول الله .

وإذا علمنا أن هذه السورة نزلت عقب توقيع معاهدة الحديبية وهى اتفاقية لا يرى فيها النظر العابر ولا الرأى القاصر أية مصلحة للاسلام والمسلمين ، إذا علمنا ذلك أدركنا أنها نزلت لأمر ما : هو التسرية عن الرسول والمسلمين وأية تسرية لهمومه وهمومهم خير من قوله تعالى « ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزا هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » وهنا يقول المسلمون لرسول الله لقد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزل على الفور قول الله تعالى « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » .

فما هو الفتح المبين الذى بشرت بهالآية الكريمة ؟ أهو فتح متوقع يكافىء ماعاناه المسلمون من هموم فى معاهدة الحديبية أم هو فتح واقع حقا كما يدل عليه لفظ الآية ؟ لقد جنح أكثر من مفسر واحد إلى أن الفتح المبين هو فتح مكة والمعنى قضينا لك فى الأزل بفتح مكة أو سنفتح لك مكة فاستعمل لفظ الماضى مكان المضارع لتحققه فهو إذن تبشير بفتح متوقع وقال كثير من المفسرين، إنه فتح واقع ولا تأويل ولامجاز فى الآية الكريمة ، والمراد به صلح الحديبية أو معاهدة الحديبية . وعلى رأس هؤلاء المفسرين أبو بكر رضى الله عنه قال المقريزى فى إمتاع الأسماع « كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد » وإذا صح ما روى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى عمرة القضية سنة سبع من الهجرة (ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية) جبّ هذا الرأى آراء الآخرين فى تفسير الفتح المبين .

ولكن كيف كانت معاهدة الحديبية فتحا مبينا ولم يتحقق فيها للمسلمين هدفهم الأكبر وهو دخولهم المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون وحمادى القول وقُصاراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى النوم أنه يدخل البيت الحرام ويحلق رأسه ويأخذ مفتاح الكعبة فاستنفر الصحابة إلى العمرة فأسرعوا وقدم عليه بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعى فى شوال مسلما فقال يا بسْر لا تبرح حتى تخرج معنا فإنا إن شاء الله معتمرون وخرج المسلمون لا يشكون فى دخول مكة وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القُرب ، وساق الرسول صلى الله عليه وسلم وكثير من المسلمين الهدى منهم أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن عبادة رضوان الله عليهم . وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه أتخشى يا رسول الله علينا من أبى سفيان بن حرب وأصحابه ولم تأخذ للحرب عدتها فقال : « ما أدرى ولست أحب أن أحمل السلاح معتمرا » وقال سعد بن عبادة رضى الله عنه لو حملنا السلاح معنا فإن رأينا من القوم ريْباً كنا معدين لهم فقال صلى الله عليه وسلم « لست أحمل السلاح إنما خرجت معتمرا » وخرج المسلمون فى نحو ألف وخمسمائة ، ومعهم أربع نسوة منهن أم سلمة

زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وصلوا إلى الحديبية بلغهم تجمع المشركين واستنفارهم ثقيفاً والأحابيش لصد الرسول والمسلمين عن دخول مكة وزيارة البيت الحرام ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليهم عثمان بن عفان ليخبرهم أنه ما جاء محاربا ، وإنما جاء لزيارة البيت الحرام معتمرا فحبسوا عثمان وأشيع أنه قتل فجمع الرسول أصحابه فبايعوه تحت الشجرة على القتال حتى الموت . وجاء وفد من قريش ليفاوض رسول الله فى الصلح فرأوا المسلمين يبايعونه فاشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا فأشاروا على قومهم أن يجنحوا إلى السلم وكانت اتصالات اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمتابعتها أن يرسلوا عثمان بن عفان ، وجاء عثمان فبايع رسول الله وكان هذا دليلا على ميل قريش للسلم وانتهت المفاوضات إلى شروط الصلح وهى :

١ — أن يرجع الرسول والمسلمون هذا العام ثم يعودوا فى العام القابل لأداء العمرة .

٢ — أن تعقد هدنة لمدة عشرة أعوام .

٣ — أن تلغى جميع المحالفات السابقة ومن أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل .

٤ — أن يرد محمد إلى قريش من جاءه من مكة مسلما ، ولا يرد المشركون من جاءهم من المدينة مرتدا .

فلما اصطلحوا ولم تبق إلا الكتابة وثب عمر رضى الله عنه فقال يا رسول الله : ألسنا المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى : فقال عمر فعلام نعطى الدنية فى ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيّعنى » ثم ذهب عمر إلى أبى بكر رضى الله عنهما فقال : يا أبا بكر ألسنا المسلمين قال بلى : قال فلم نعطى الدنية فى ديننا فقال أبو بكر الزم غرزه[1] فإنى أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به ؛ ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله ولم تهدأ ثائرة عمر فجعل يردد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام وهو يقول : أنا رسوله ولن يضيعنى ويعود عمر إلى الكلام فقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه

(١) أى لا تخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ، نعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك فجعل عمر يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حينا .

وكان المسلمون يكرهون الصلح لأنهم خرجوا لا يشكون فى دخول مكة لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة فلما رأوا شروط الصلح داخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون حتى قال عمر ورجال معه يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن فقال صلى الله عليه وسلم « هل قلت لكم فى سفركم هذا قال عمر لا فقال صلى الله عليه وسلم أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسى ورءوسكم ببطن مكة وكتبت المعاهدة بعد مناقشات حامية حول بدء الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم أو باسمك اللهم وحول وصف محمد بأنه رسول الله أو ابن عبد الله وقبل رسول الله وجهة نظر المفاوض القرشى فى أن يكون بدء الكتاب (باسمك اللهم) وأن محمدا بن عبد الله جنوحا إلى السلم ثم وقع المعاهدة من جانب المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد عليها أبو بكر بن قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ووقعها من جانب قريش سهيل بن عمر وشهد عليها حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف وأخذ رسول الله أصل الكتاب وأخذ سهل صورة منه . وبعد أن تم الصلح على تلك الشروط . نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وحلق وأحل من احرامه وتبعه المسلمون بعد تمنع وإباء . فهل كان هذا الصلح على تلك الشروط أعظم فتح فى الإسلام كما روى عمر عن رسول الله وكما قال أبو بكر ؟ وهل كان فتحاً مبيناً كما قال به علية المفسرين فى تفسير الآية الكريمة ؟ اللهم نعم وصدق الله رسوله وصدق أبو بكر فيما قال وصدق عمر فيما روى عن رسول الله قال تقى الدين المقريزى فى امتاع الاسماع « ولقد جعل عاقبة قضية الحديبية خيرا فأسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله إلى الخروج يوم الحديبية وما كان فى الإسلام فتح أعظم من الحديبية ، فإن الحرب كانت قد حجزت بين الناس فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا ودخل فى الهدنة صناديد قريش الذين كانوا يقومون

بالشرك ، وما يحدث عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأشباههما وفشا الإسلام فى جميع نواحى العرب . وكانت الهدنة إلى أن نقضت قريش العهد بعد اثنين وعشرين شهرا ».

وبيان ما قاله المقريزى أن الهدنة مكنت رسول الله من إرسال كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام فاستجاب منهم من استجاب ، ومكنت للراغبين فى الإسلام من إعلان إسلامهم بل مكنت لوفود العرب أن تقدم إلى المدينة لتقف على الدعوة ومكنت لمن دخل فى الإسلام أن يأتى إلى رسول الله معلناً إسلامه ، فمن كان من مكة أمره أن يعود إلى مكة وفاء بالمعاهدة وطبقاً لشروط الصلح ، ومن كان من غير مكة مكث ما شاء أن يمكث بالمدينة . ثم عاد إلى دياره إن شاء ، ثم راجت تجارة المدينة حتى مع مكة بعد أن كانت العلاقات الاقتصادية منقطة بينهما ثم توطدت أركان الإسلام كدولة اعترفت بها قريش واعترفت بمحمد ندّاً لهم يفاوضونه ويوقعون معه معاهدة بعد أن كان فى نظرهم ثائراً وفى السماح له بالعمرة فى العام القابل تسليم بأن للمسلمين شعائر فى البلد الحرام يؤدونها لا محالة برضا المشركين واختيارهم فهو اعتراف ضمنى بالدين الجديد الذى أعلنه محمد بينهم والذى كانوا يسمونه من أجله صابئا وفشا الإسلام بمكة سراً ولم يبق بيت فيها إلا وهو يتحدث بقرب فتح مكة حتى لقد ذهب أبو سفيان إلى المدينة يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم اطاله مدة الهدنة فرفض رسول الله هذا العرض . أما قول الله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فأعدل الآراء فى تفسيره ما ذكره بعض العلماء فى قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك) فالوزر والذنب واحد فى اللغة العربية وقد فسر الوزر الذى انقض ظهره ، بالهموم التى كان ينوء بها كاهله من موقف قومه من الدعوة إبان ظهورها فشرح الله صدره وأزال همه ورفع ذكره وبالقياس على ذلك كان صلح الحديبية قاطعاً لهموم الرسول ما تقدم وما تأخر بنتائجه التى أعلمه الله بها فاطمأن قلبه لمعاهدة الصلح بينما قلق المسلمون وضجر عمر واشتد واحتد ؛ والمغفرة محو الذنوب وهى محو الهموم ويعلم الله لو أن المسلمين قاتلوا المشركين يوم الحديبية لانتصروا عليهم ولكن لم تتحقق رؤيا رسول الله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) وصدق الله إذ يقول (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدن

ولياً ولا نصيرا) ولـكن أيضاً سوف يترتب على دخولهم مكة يوم الحديبية مقاتلين منتصرين معرة ، ففى مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات فلو دخلوا لأصابوا هؤلاء المؤمنين والمؤمنات بسوء قال تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) لقد علم الله ذلك فصرفهم عن الحرب إلى الصلح . أما الفتح القريب المذكور فى قول الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) فهو فتح خيبر وكان ذلك عقب عودة رسول الله من الحديبية فى السنة السابعة من الهجرة ، قيل فى أواخر المحرم وقيل فى صفر وقيل فى ربيع الأول فقد بلغه تجمع اليهود فى خيبر لمحاربة المسلمين فخرج إليهم رسولُ الله وحاصرهم وصارت حصونهم تسقط فى يد المسلمين حصناً بعد حصن ورسول الله يأخذ الغنائم من مال وسبى حتى طلب اليهود الصلح على أن يظلوا فى دورهم وللمسلمين نصف الثمر فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاد بمغانم كثيرة وهـذا قول الله تعالى (ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لـكم هذه وكف أيدى الناس عنـكم ولتـكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً) .

هذا هو الفتح القريب وذاك هو الفتح المبين وعاد رسول الله إلى مكة فى العام السابع معتمرا أما من ردهم الرسول ممن جاءوا إليه من مكة مؤمنين فقد تجمعوا فى الطريق يقطعون على قريش طريق التجارة ويسلبون أموالهم ويقتلون رجالهم فأرسلت قريش إلى الرسول تناشده الرحم أن يقبل من جاءه مسلما من مكة ولا يرده وهكذا جعل الله لهؤلاء المؤمنين فرجاً ومخرجا . ثم نقض المشركون العهد حيث آزروا حلفاءهم على حلفاء رسول الله فعد رسول الله ذلك خرقاً لشروط الصلح وتأهب لفتح مكة ، فدخلها عنوة دون قتال يذكر وطاف بالبيت وأخذ مفتاحه ومعه المسلمون آمنين . وهكذا حقق الله لرسوله ما وعده به من فتح ونصر ومغانم ، ولـكن الناس يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد وصدق الله (لـكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) .

جاد المولى سليمان
مفتش المساجد العام

هدى الرسول

قيام الليل

١ — فضله :

(١) أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » .

وهذا الأمر وإن كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه ، بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم .

(٢) بيّن أن المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته فقال : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

(٣) ومدحهم وأثنى عليهم ونظمهم فى جملة عباده الأبرار فقال : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً » .

(٤) وشهد لهم بالإيمان بآياته فقال : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(٥) ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ، ممن لم يتصف بوصفهم فقال : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

---

(١) ما يهجعون : أى ينامون .

هذا بعض ما جاء فى كتاب الله . أما ماجاء فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهاك بعضَه :

(١) قال عبد الله بن سلام : أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انْجَفل الناس إليه ، فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنتهُ ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب ، قال : فكان أول ما سمعت من كلامه ، أن قال : « أيها الناس أفشُوا السلامَ ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناسُ نيام ، تدخلوا الجنةَ بسلام » رواه الحاكم وابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) وقال سلمان الفارسى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بقيام الليل فإنه دأبُ الصالحين قبلَكم ، ومَقْرَبَةٌ لكم إلى ربِّكم ، ومَكفَرَةٌ للسيئات ، ومنهاةٌ عن الإثم ، ومَطردة للداء عن الجسد » .

(٣) وقال سهل بن سعد : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد عِشْ ما شئت فإنك ميّتٌ ، واعمل ما شئت فإنك مجزىٌّ به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقُه ، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُ الليل ، وعزّه استغناؤه عن الناس » .

(٤) وعن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة يحبُّهم الله ويضحكُ إليهم ويستبشرُ بهم : الذى إذا انكشفت فئةٌ قاتل وراءها بنفسه ، لله عزّ وجل . فإما أن يُقتلَ وإما أن ينصرَهُ الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ، والذى له امرأةٌ حسنة وفراشٌ لِيِّن حسن فيقوم من الليل فيقول : يَذَر شهوتَه ويذكرنى ولو شاء رقد ، والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء » .

٢ — آدابه :

يسن لمن أراد قيام الليل ما يأتى :

(١) أن ينوى عند نومه قيامَ الليل . فعن أبى الدرداء : أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقومَ فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى ، وكان نومه صدقةً عليه من ربه » رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

(٢) أن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ، ويتسوكَ وينظرَ فى السماء ، ثم يدعو بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : لا إله إلا أنت سبحانَك ، أستغفرك لذنبى وأسألُك رحمتك : اللهم زدنى علماً ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب . الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » إلى آخر السورة ثم يقول : اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت .

(٣) أن يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ، ثم يصلى بعدهما ماشاء .

فعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يُصلِّى ، افتتح صلاته بركعتين خفيفتين . وعن أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواهما مسلم .

(٤) أن يوقظ أهله :

فعن أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله امرأ قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجَها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ، أو صلَّى ركعتين جميعاً ، كتب فى الذاكرين والذاكرات » رواهما أبو داود وغيره ، بإسناد صحيح .

وعن أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : « سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رُبَّ كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة » رواه البخارى . وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال : « ألا تصليان ؟ » قال : فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإن شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو مُول ، يضرب فخذه . وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » متفق عليه .

(٥) أن يترك الصلاة ويرقد ، إذا غلبه النعاس ، حتى يذهب عنه النوم .

فعن عائشة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع » رواه مسلم . وقال أنس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وحبل ممدود بين ساريتين فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : لزينب تصلى ، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به . فقال : « حُلُّوه ليُصَلِّ أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد » متفق عليه .

(٦) أن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ما تتسع له طاقته ويواظب عليه ولا يتركه إلا لضرورة .

فعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا[1] » متفق عليه .

ورويا عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل ، أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « أدْوَمُه وإن قَلَّ » وروى مسلم عنها قالت : كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة ، وكان إذا عمل عملا أثبته . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله لا تكن مثلَ فلان . كان يقوم الليل فترك قيامَ الليل » متفق عليه . ورويا عن ابن مسعود قال : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل نام حتى أصبح ، قال : « ذاك رجل بال الشيطانُ

(١) معنى الحديث : أن الله لايقطع الثواب حتى تقطعوا العبادة .

فى أذنَيه ، أو قال فى أذنه » . وروينا عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبيه : « نعمَ الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا .

٣ — وقته :

صلاة الليل تجوز فى أول الليل ووسطه وآخره ، ما دامت الصلاة بعد صلاة العشاء . قال أنس رضى الله عنه فى وصف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصلياً إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول : لا يفطر منه شيئاً ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم منه شيئاً . رواه أحمد والبخارى والنسائى . قال الحافظ : لم يكن لتهجده صلى الله عليه وسلم وقت معين ، بل بحسب ما يتيسر له القيام .

٤ — أفضل أوقاته :

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير .

١ — فعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل ربُّنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر فيقول : «من يدعونى فأستجيبَ له ، من يسألنى فأعطيَه ، من يستغفرنى فأغفرَ له » . رواه الجماعة .

٢ — وعن عمرو بن عبسة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أقرب ما يكون العبدُ من الرب فى جوف الليل الأخير ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكرُ الله فى تلك الساعة فكن » رواه الحاكم وقال : على شرط مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه أيضاً النسائى وابن خزيمة .

(٣) وقال أبو مسلم لأبى ذر : أىُّ قيام الليل أفضل ؟ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : « جوفُ الليل الغابر[١] وقليل فاعله » رواه أحمد بإسناد جيد .

---

(١) « الغابر » : الباقى ، أو نصف الليل .

(٤) وعن عبد الله بن عمرو : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الصيام إلى الله صيامُ داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاةُ داود : كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً » رواه الجماعة إلا الترمذى.

٥ — عدد ركعاته :

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، ولا حدٌّ معين ، فهى تتحقق ولو بركعة الوتر ، بعد صلاة العشاء .

(١) فعن سَمُرة بن جُندب رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلى من الليل ما قلَّ أو كثر ، ونجعل آخر ذلك وتراً . رواه الطبرانى والبزار .

(٢) ورُوى عن أنس رضى الله عنه ، يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلاةٌ فى مسجدى تَعْدِلُ بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تَعْدِل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرِّباط[1] تعدل بألفى ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جَوف الليل » رواه أبو الشيخ بن حبان فى كتابه : الثواب ، وسكت عليه المنذرى ، فى الترغيب والترهيب .

(٣) وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا بدَّ من صلاة بليل ولو حلْبَ[2] شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل » رواه الطبرانى ورواته ثقات ، إلا محمد بن إسحق .

(٤) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ذكرت قيام الليل فقال بعضهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نصفه ، ثلثه ، ربعه ، فُواق[3] حَلْب ناقة ، فُواق حَلب شاة » .

(٥) وروى عنه أيضاً قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الليل ، ورَغَّب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة اللَّيل ولو ركعة » . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

(البقية على صفحة ٢٤)

---

(١) المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون .

(٢) أى قدر الوقت الذى تحلب الشاة فيه .

(٣) قال المنذرى : الفواق هنا : قدر ما بين رفع يديك عن الضرع وقت الحلب وضمهما .

أسرار الشريعة

ليس من الإسلام :

من بدع العقائد

التوحيد جوهر الإسلام ومظهره ، ولبابه وقشوره ، ودعامة التعاليم التى جاء بها ، بل هو رباط بنائه ولون طلائه ومعقد أصوله وفروعه . . .

وليس الإسلام بدعاً فى الدعوة إلى توحيد الله فرسل الله قاطبة بعثوا بهذا الإيمان الخالص وجمعوا الناس عليه ، وحذروهم من كل شائبة تعكر صفوه وتطفئ رونقه « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

غير أن جماهير غفيرة من البشر أبت إلا أن تزيغ عن هذا الصراط ، وأن تتشبث بأوهام سخيفة باعدتها عن الله وأحلتها دار البوار . فكان كل نبى سبق يجىء بالحق ويناشد الأمم أن تثوب إليه حتى جاء خاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فصدع صرح الشرك ، وخط فى شغاف القلوب عقيدة الإيمان بالله الواحد . وكان القرآن الكريم — ولا يزال — النداء العالى لهذا اليقين الحق ، والمجادل القوى عما يعرض له من شبه أو يلتبس به من تخليط . . . .

ومن المؤسف أن المسلمين أصابهم مس من داء الأمم السابقة فظلموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد وبما أقحموه عليها من بدع وخرافات . وهى بدع وخرافات تشبه ما انزلق إليه الأولون أو هى ترديد لما كان من لغو . . . حذوك النعل بالنعل . « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

والابتداع قد يأتى بالشىء وضده معا ليفسد العقيدة الوسط . فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة التوحيد . وكذلك إفناء الخلق فى الخالق ضلال لا أصل له

فى هذه الملة ، وإن كان ظاهره أنه غلو فى تقدير الله وإغراق فى مبدأ التوحيد .

وحدة الوجود : كنا نظن أن هذه الخرافة قد انتهت بانتهاء أصحاب الشطحات الذين اشتهروا فى التصوف القديم ، إلا أن نفراً من عصاة المسلمين فى عصرنا هذا عند ما يتركون حياة المجون ويرغبون فى العودة إلى الله تصيبهم لوثات غريبة فيحسبون من تمام توبتهم تغليب ذات الله على كل ما يعرض لهم من أشخاص وأشياء ، فتراهم يخرجون من أنفسهم ويسلخون العالم من خصائصه العتيدة ، وقد تتردد على ألسنتهم كلمة « الحلاج » عند ما سئل : من فى الجنة ؟ قال: الله . . .

ولما كان من المتعذر بناء سلوك عملى على هذه الفكرة فإن الجانحين إليها يكتفون بنوع من الجبر الذى يشل الإرادة ، والتسليم لما تفد به الأحداث ، ثم الحديث عن الله الكامن فى كل شىء حديث استكانة وذوبان . .

وقد أصيب جمهور المسلمين برشاش من هذه الخرافة أوقف نمو المنطق المادى فى بلاد الإسلام ، وخلط بالإلهيات أموراً كثيرة لا تمت إليها بسبب .

إن العالم شىء يغاير الله — برغم ما يقوله فريق المتصوفة — والله عز وجل ذاته وأسماؤه وحقوقه التى فصلت تفصيلا فى كتبه المنزلة .

وهناك فرق كبير بين وحدة الوجود ووحدة الشهود .

إن المرء قد يستغرق فى النظر إلى مسألة ما استغراقا يذهله عما حوله ، وربما نودى وهو غارق فى بحار الفكر فلا يسمع النداء . فهل هذه الصورة من صور الانحصار الذاتى تعنى فناء ما حول الإنسان لأن الإنسان غائب عنه بفكره ؟

والشمس تطلع فتغمر بأشعتها الساطعة أرجاء الكون فلا يمكنك أن ترى فى الأفق البعيد أو القريب نجما . حتى إذا عاد الليل ونشر ظلامه أخذت النجوم المختفية عن العين تلوح فرادى وجماعات ، هل غلبت أشعة الشمس عليها تعنى لمن لا يراها أنها معدومة ؟ إن من المؤمنين الأخيار من يعيشون فى أنوار الله معيشة رفيعة ، رسخوا فى مقام الإحسان حتى ألفوا أطواره الزاهية . ومقام الإحسان كما عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه

فإنه يراك » وهذا الألف يصح أن نطلق على حقيقته وحدة الشهود . وهى منحى يغاير تمام المغايرة وحدة الوجود وإن اختلط الأمران على القاصرين .

وأكثر الذين يعتنقون فكرة ما أو تسيرهم عاطفة خاصة يقيسون ما يلقاهم من شئون الحياة على ضوئها ، ألا ترى الرجل الغزل يقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

فليس بعجيب أن يوجد مؤمنون تستولى على مشاعرهم عاطفة دينية تجعل نشاطهم كله محصوراً فى مرضاة الله . وتجعل نظرتهم للأمور من هذه الزاوية الخاصة وحدها ؛ بل فى هذا يساق الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

فالحديث يشير إلى مرتبة التفانى فى إرضاء الله تفانيا يجعل حواس المرء وجوارحه مسخرة فى طاعة الله وحده . ولا يعنى ألبتة أن إدمان العبادة ينتهى بحلول أو اتحاد كما يتصور بعض السذج أو ينتهى على القليل بطور خارق للنواميس المعتادة كما صور ذلك المتصوفة فى حديث مكذوب « عبدى أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون » .

الوسطاء : ومما وقع فيه العوام الاتجاه إلى قبور بعض الصالحين ، يطلبون من أصحابها مالا يطلب إلا من الله عز وجل . ولعل سر هذا الشرود أن الناس يرون فى أنفسهم ضعة تقصر بهم عن مناجاة الله مباشرة ، فهم يذهبون بحاجاتهم إلى قوم أزكى حالا ليرفعوا عنهم مالا يمكنهم رفعه بأفئدتهم وألسنتهم . وهذه العلة هى سر الانصراف عن الله الحق إلى عبيده الذين يسمعون والذين لا يسمعون بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون . وكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله تنتهى بانتهاك حرمات الله ! ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا نساء ورجالا محتجين بأنه لا ينبغى أن يطوفوا فى ثياب عصوا الله فيها . . ؟

فالتحرج من الاتصال بالله دون وساطة كان جرثومة الوثنية القديمة التى صور القرآن الكريم اعتذارها عن شركها بقوله « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وهذا الاعتذار نفسه هو ما يردده سدنة الجاهلية الحديثة فى دفاعهم عن قصاد القبور طلباً للشفاء والفلاح والتماساً للنجدة والعون . . .

وبديهى أنه لا مكان فى الإسلام لوسطاء بين الله وخلقه . وأن كل مسلم مكلف أن يقف بين يدى الله مهما كانت حالته وهو موقن بأن دعاءه ينتهى إلى سمع الرحمن من غير تدخل بشر آخر أيا كان شأنه . والعبادة الأولى فى الإسلام وهى الصلاة المقسمة على أجزاء النهار والليل قوامها هذه الحقيقة المؤكدة التى لا ريب فيها .

فكيف يوجب الله على عباده أن يترددوا على ساحته ويسألوه حتما الهداية إلى الصراط المستقيم ، ويسجدوا بين يديه ضارعين طالبين ، وكيف يعتبر التخلف عن هذه الصلوات كفراً به أو إهداراً لحقه ثم يسوغ لأحد من الناس بعد أن يقول : أنا محتاج لوسيط يحمل عنى إلى الله ما أريد .

إن هذا لا تفسير له إلا الرغبة فى الشرك الخفىّ أو الجلىّ . وتسأل طالب الوساطة : من تختار ليكلم لك الله ؟ فلو أنه اختار من الأحياء رجلا يتوسم فيه الصلاح ليدعو الله له لهان الخطب . بيد أن العجيب قصده إلى الأموات الذين انقطعت بالدنيا صلاتهم ، وأفضوا إلى ما قدموا من عمل ولا شعور لهم بهذا القاصد المجهول لم ؟ ليطلب منهم أو يستشفع بهم . . . ؟

إن التفكير الإسلامى سقط فى هذه الوهدة الشائنة من أمد بعيد . فدارت حول الولاية والأولياء خرافات شتى ، وجاءت على الناس أيام ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت بأيدى نفر من هؤلاء الهلكى يصرفونها — بدلالهم على الله — كيف يشاءون . .

وزاد الطين بلة ، أن أولئك الأولياء المقصودين تجاوزت قدرهم قوانين الأسباب والمسببات المعروفة . فاضطربت تبعاً لذلك نظرة المسلمين إلى سنن الله الكونية وحسبوها تلين لكل من واظب على شىء من العبادة ! ! وانتهى أمر هذه الأمة المنكودة إلى أن فقدت مكانتها العالمية فى دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار

الطبيعة وقوانين الحياة . بعد أن فقدت أيضاً منزلتها عند الله مذ أشركت معه من لا يملك لنفسه ولغيره ضراً ولا نفعاً .

« أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

لماذا يكون من الدين الاعتراف بحق « أناس ما » فى التوسط بين الله وخلقه ؟

ولماذا يكون من الدين الاعتراف بقدرة هؤلاء على اختراق نواميس الطبيعة وصنع الخوارق الباهرة ؟

ولماذا يعد من شعب الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر أن تقر بحقوق هذه الولايات وطاقتها الواسعة فى تصريف الشئون وبعث الشجون ؟

الحق أن هذا كله تخليط سمج ، وأن اللجاجة فيه نزغة جاهلية ، ولن تعدم دعياً فى الإسلام يخاصم عن هذه الأوهام ، ويحاول تعكير التوحيد الخالص — وهو روح الإسلام ومادته — بلغط لا عقل فيه ولا إخلاص ، زاعماً أن اتخاذ الوسطاء لا ينافى تعاليم الدين . . .

ولا غرابة ! فإن النصارى يرون التثليث توحيداً . « وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً » ! !

ما وراء المادة : الإسلام رسالة صلاح وإصلاح ، صلاح للنفس وإصلاح للمجتمع العام . وعند ما نزل هذا القرآن الكريم وأخذ رسول الله يجمع الناس على هديه المبين تعهد الناس بالأمرين جميعاً . فكان المؤمنون يصقلون أنفسهم بآداب الدين ، ويرون لزاماً عليهم أن يرسموا للحياة حدود الكمال ، وأن يقودوا الدنيا طوعاً أو كرهاً إلى الحق والخير . وأعباء هذه الرسالة الضخمة بشقيها الخطيرين لا تدع مجالا لثرثرة البطالة وترف العقول . ومن هنا لم يسجل تاريخ الإسلام فى عهد السلف الصالح نقاشاً فى بحث المسائل الإلهية أو تقعراً فى فهم المقررات الدينية ، فإن القوم شغلوا بما هو أعظم من ذلك ، شغلوا بأداء رسالة الإسلام الصحيح فكان العمل المجدى والإنتاج الموفور همهم الأول والأخير حتى إذا ضعفت موجة هذا النشاط الرائع ، وقعد الناس فى

مجالسهم سا كتين اتجهوا إلى أصول الإسلام وفروعه يجعلون من تقليبها على وجوهها وتشقيقها وتشريحها عملا يتقربون به إلى الله أو قل : يقضون به أوقات الفراغ . . .

وقد انفتحت على الإسلام أبواب الشر من هذا الترف العقلى وخاصة بعد أن ترجمت مسائل الفلسفة الإغريقية ولقيت من عناية المسلمين بها حظاً كبيراً . فإن لفيفاً من المفكرين لم يجد حرجاً فى خلط أصول الإسلام بمناهج التفكير اليونانى فى الإلهيات وبذلك اتسع ميدان الجدل وطال وعرض ، وأمسى العلم الذى يتعرض لموضوعات العقيدة يسمى علم الكلام . . وانشغل علماء المسلمين بأمثال هذه المباحث : هل الوجود عين الموجود أم صفة خارجية ؟ هل صفات المعانى هى الذات أم هى لا هو ولا غيره ؟ هل القرآن كلام الله قديم أو حديث ؟ هل رؤية الله ممكنة أو قديمة ؟ هل تعاد الأجسام بعد البعث بأعيانها أم بأشباهها ؟ هل . . هل . .

ونحن لا نهتم بتحديد الحق فى هذه الإجابات قدر ما نهتم بالإبانة عن أن هذه البحوث كلها لغو من القول ، وأن المسلمين انكبوا عليها يوم اضطربت سياستهم الشرعية وقلت أنصبتهم من العمل النافع لأنفسهم وللعالمين .

هل معنى هذا أن الاستبحار العلمى محظور ؟ وأن الحجر على الفكر حتى لا يخوض هذه البحوث سنة ؟ وأن إطلاق العنان له بدعة ؟

والجواب أن العلم نوعان : علم تجريبى استقرائى يقوم على البحث فى المادة والانطلاق فى عالم الشهادة ، وهو علم لا يمكن لأحد أن يضع له حدا أو أن يصنع له قيدا ، والانشغال به طاعة لله ورسوله واستمساك بالحق واتباع لهدى القرآن .

وعلم يتصل بما وراء المادة أى بعالم الغيب والمعارف التى تجيئنا فى هذا الميدان مصدرها الفذ وحى السماء ولا مجال فيها للعقل إلا مجال الافتراض والتظنن ، وأكثر الفلسفات المتصلة بما وراء المادة هذيان وتخبط ، لأنها لا تخضع لوسائل يحكمها العقل السليم أو تتمشى مع منطقه المحكم ، ومقتضى ذلك أن نتلقى بالتسليم ما جاء به الشارع من حقائق غيبية ، وأن نتيح للعقل فرصة الاجتهاد والاكتشاف فى ميدان الكون الرحب .

أليس من السخف أن يجئ رجل ليبحث عن حقيقة استواء الرحمن على عرشه، وهو لا يدرى شيئاً عن قوانين الأجسام الطافية أو قوانين الانعكاس والانكسار. وهبه درى بشيء من ذلك بالوسائل المادية التى بين يديه، فما هى الوسائل التى يصل بها إلى استكناه حقيقة الاستواء؟

لاشك أن انشغال العقل الإسلامى بهذه البحوث غير المادية كان على حساب تقصيره المعيب فى البحوث المادية نفسها، فضلا عن تقصيره فى رسالته العملية التى شرحناها آنفا، وأن الكلام فى الإلهيات على هذا النحو من المحدثات التى آذت الإسلام وأهله فى الأولين والآخرين . . .

محمد الغزالى

(بقية مقال « هدى الرسول » على صفحة ١٧)

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة ركعة، وهو مخيَّر بين أن يَصلها، وبين أن يقطعها. قالت عائشة رضى الله عنها: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلى أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلى أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلى ثلاثاً. فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: « يا عائشة إن عينىَّ تنامان ولا ينام قلبى » رواه البخارى ومسلم. ورويا أيضاً عن القاسم بن محمد قال: سمعت عائشة رضى الله عنها تقول: كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل عشر ركعات، ويوتر بسجدة.

٦ — قضاء قيام الليل:

روى مسلم عن عائشة: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا فاتته الصلاة من الليل، من وجَعٍ أو غيره صلَّى من النهار ثنتى عشرة ركعة. وروى الجماعة إلا البخارىَّ، عن عمر رضى الله عنه: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من نام عن حزبهِ أو عن شىء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب كأنما قرأه من الليل ».

السيد سابق

أعلام الإسلام

البراء بن مالك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من ضعيف مستضعف ، ذى طمرين ، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[1] » . . .

هذا الحديث الشريف رواه كثير من أصحاب السنن بروايات متعددة ، وأسانيد مختلفة . . . وقد حار كثيرون فى فهم معانيه ، وظنه بعضهم داعيا إلى لبس المرقعات، والذهاب فى الناس بسمات الذلة والضعة والمهانة .

وهذا معنى يبرأ منه الإسلام ، وليس للراضين به عن طواعية عند الله سبحانه سوى جهنم وساءت مصيرا .

وقد رأى عمر رضى الله عنه رجلا جلس فى المسجد وثنى رقبته إلى صدره وأخذ يتصنع الخشوع فى ذلة ومسكنة ؛ فصاح به : « يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، إن الإيمان فى القلب لا فى الرقبة » .

ومحال أن يكون هذا الضعف المقرر فى الحديث هو ضعف الإيمان ، لأن ضعيف الإيمان ليس له عند الله من الكرامة ما يجعله مستجاب الدعوة بالقدر الذى يصوره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ومحال — أيضا — أن يكون المراد هو ضعف البدن ، لأن ضعف البدن ليس من سمات الشرف التى تجعل صاحبها وجيها عند الله ، مسموع الكلمة مقبول الدعاء .

* * *

وفى بعض روايات هذا الحديث ذكر البراء بن مالك رضى الله عنه على النحو الآتى : «رب أشعث أغبر لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك» .

---

(١) رواه الترمذى .

وخير ما يفسر لنا هذا الحديث ، ويبين حقيقة معانيه ، هو سيرة هذا الصحابى الجليل ، وما تحلت به من المثل الكريمة الفاضلة . . .

كان البراء بن مالك سيدا فى نفسه ممتازاً بخصوصية رائعة كفلت له عند الله علو المقام وسبوغ الكرامة .

ووجهاء الناس أوسادتهم أصناف أربعة :

صنف أوتى الوجاهة فى الدنيا والآخرة ، إذ آثره الله بعناصر السيادة النفسية التى تجعله رفيع الهمة ، شريف الغايات . . . وله من المواهب الاجتماعية إلى جانب ذلك ما يجعل الناس — عند خلوهم من الأهواء الشخصية — يصغون إليه ويقرون له بالتقدمة .

وقد ذكر القرآن الكريم عيسى بن مريم عليه السلام مثلا لهذا الصنف ، إذ قال سبحانه : « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين » .

وصنف لم يؤت شيئاً من خصائص تلك الوجاهة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . . . أولئك هم الذين اقفرت نفوسهم من نوازع الخير وشرف المعانى ، وليس لهم إلى جانب هذا الفقر النفسانى أى نصيب من روعة المظهر ، أو أناقة القول يزيفون به حقيقة نفوسهم على الناس ، ليحتلوا فيهم منزلة السيادة والكرامة ، وفى هذا الصنف التافه يقول الحق سبحانه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

ومنهم من اقفرت نفسه من الخير ، فلا وجاهة له عند الله ، ولكنه حسن المظهر أنيق القول ، له فى الناس من الوجاهة الدنيوية المصنوعة ما لا قيمة له عند الله ، أولئك الذين قال فيهم سبحانه : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم ، كأنهم خشب مسندة » .

والصنف الرابع هو الذى حرم نصيبه من روعة المظهر ، وانصرفت نفسه عن

حب الرياسة فى الناس فلا يكاد يأبه له أحد ، ولـكنه مع ذلك حي ، فى طبعه سيادة عالية بما رزق من سيادة المعانى والنوازع الرفيعة . . . فإذا رأيته تجاوزه بصرك كأنه لم يقع على شيء ، لهوان مظهره وقلة اكتراثك به ، وهو عند الله بالمكان المرموق . . . أولئك الذين يصف الرسول عليه السلام حالهم بقوله : « رب أشعث أغبر ، لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » . . .

***

هذا الأشعث الأغبر ، أو هذا الضعيف المستضعف الذى لا يؤبه له كان مثلا رائعا فى شجاعة القلب ، وقوة البأس ، واقتحام المخاطر إذا حمى الوطيس ، وافتقد الناس الفتى الذى يجلو عنهم كرب المعركة . . .

روى صاحب الإصابة أن خالد بن الوليد قال للبراء يوم اليمامة — وهو يحارب مسيلمة — قم يا براء . فقام البراء ، وركب فرسه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لا مدينة لكم اليوم ، وإنما هو الله وحده والجنة » ثم حمل وحمل الناس معه ، فانهزم أهل اليمامة . . ومضى حتى لقى محكم بن الطفيل قائد مجنبة جيش مسيلمة ؛ فحمل عليه وصرعه ، وأخذ سيفه ، وظل يضرب به فى أهل اليمامة حتى انقطع . . .

هـذا موقف من مواقف ذلك الضعيف المستضعف الذى لا يؤبه له . . . أو على الأصح هذا شطر موقف من مواقفه الكثيرة ، أما شطره الآخر ، فإن أهل اليمامة ظلوا ينهزمون حتى لجأوا إلى حديقة كبيرة ذات أسوار عالية ، كان فيها مسيلمة معتصما فأغلقوها عليهم . . فماذا يفعل الضعيف المستضعف بإزاء ذلك ؟ . . هل يترك أعداء الله حتى يجمعوا شملهم ، وينظموا صفهم ، ويستردوا ما فقدوا من قواهم ؟ .

لقد طلب إلى المسلمين أن يرفعوه حتى إذا استوى على جدار الحديقة ، قذف بنفسه فيها ، وأخذ يحس أعداء الله بسيفه ، كالصاعقة المنطلقة ، يموت من يموت ، ويفر من يفر ، حتى انتهى إلى باب الحديقة ففتحه ، ودخل المسلمون كالسيل

المنهمر ، فأتموا ما بدأ الله من نصر على يد البراء ، وقتل مسيلمة لعنة الله عليه فى هذا اليوم .

هكذا كان البراء بن مالك : لا يبالى أسقط على الموت أم سقط الموت عليه . وقد عرف فيه عمر رضى الله عنه ذلك ، فأوصى أن لا يكون البراء قائد الجيش من الجيوش لقلة مبالاته بما يعترضه من المخاطر ، فقال : « لا تستعملوا البراء بن مالك على جيش من جيوش المسلمين ، فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم » .

كان يبارز ، فينقض على مبارزه كالموت المنهوم ، ويغشى المعارك فيمضى فى أعداء الله كما تمضى النار فى الهشيم ، حتى قيل إنه قتل مائة مبارز سوى من شارك فى قتله .

وكان يحس فى أعماق نفسه أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليهب له تلك الشجاعة ويرزقه حب اقتحام المخاطر ، إلا وقد قدر له شرف الاستشهاد فى سبيله ؛ وكان هذا الإحساس العميق يحل من نفسه محـل اليقين ، فلم تفارقه ثقته فى الشهادة لحظة واحدة . . .

ومن ذلك انه كان حسن الصوت ، وربما استسلم لهواه فى الغناء ، فرفع عقيرته بشىء من الشعر ، فسمعه — مرة — أخوه أنس بن مالك رضى الله عنه ، فلامه على ذلك ، ونبهه إلى أن مثوبة التغنى بالقرآن خير من ذلك قائلا له : أتتغنى بالشعر وقد أبدلك الله به ما هو خير منه وهو القرآن ؟

ورأى البراء فى نصيحة أخيه كأنه يذكره الله وحسن الاستعداد للقائه على حال خير من الغناء بالشعر ، فقال له : أتخاف على أن أموت على فراشى ، وقد تفردت بقتل مائة سوى من شاركت فيه ؟ إنى لأرجو أن لا يفعل الله ذلك بى ، وما كان الله ليحرمنى الشهادة ! ! .

ومن أمثلة شجاعته وقلة مبالاته بالمخاطر ما رواه إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة قال : بينما أنس بن مالك وأخوه البراء بن مالك عند حصن من حصون العدو بالعراق ؛ وكانوا يلقون من أعلى الحصن بكلاليب فى سلاسل محماة ، فتعلق بمن تعلق

به من المسلمين فيرفعونه إليهم ، دون أن يستطيع أحد أن يخف لنجاته إشفاقا من السلاسل المحماة . . ففعل الأعداء ذلك فنشبت السلسلة بأنس بن مالك فأقبل البراء حتى تراءى فى الجدار ثم قبض بيده على السلسلة ، وأخذ يجذبها ، فما برح حتى قطع الحبل ، ثم نظر إلى يده ، فإذا عظامها تلوح ، قد ذهب ما عليها من اللحم ، وأنجى الله أنس بن مالك بذلك . .

***

هذا هو الضعيف عند الناس ، القوى عند الله . . . والذى تزدريه أعين من لا يعرفون هوانا بمظهره ، وعين الله تلحظه فى إكبار وحب ، ذاك طراز سما بهمته أن تنظر إلى ما على الأرض من زينة ، فعاف شهوتها من مطعم وملبس ومنصب ، وتعلق بما فى الأفق الأعلى من حقائق الرياسة ؛ وشرف المنازل ، ووجاهة القرب فى حضرة القدس عند مليك مقتدر . فإذا عاش ، عاش وله فى كل خطوة أو لحظة ، أو إشارة أو حركة مثل أعلى يضربه . . وإذا مات مات الميتة التى يستشرف لشرفها عظماء الرجال ؛ ويخنس من النظر إلى مستواها الرفيع كل تافه زرى فارغ القلب إلا من التشبث بما على هذه الأرض . . لما كان يقاتل يوم تستر — من بلاد الفرس — انكشف الناس ، وذعر المسلمون ، فصاحوا : أين البراء بن مالك ؟ لقد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رب أشعث أغبر لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » فلما صادفوه ؛ قالوا : يا براء ، أقسم على ربك ! . .

فرفع البراء عقيرته بدعاء ارتجت له الأنحاء من حوله : أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم ، وألحقتنى اليوم بنبيك محمد » . . . وحمل على أعداء الله ، وحمل المسلمون معه ، ولم تكن إلا جولة حتى انهزم الفرس ، وحتى لحق البطل بحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ؟

البهى الخولى

من كتب التراجم :

أبو حنيفة

تأليف الأستاذ عبد الحليم الجندى

المحامى بقلم قضايا الحكومة

انتهيت من قراءة هذا الكتاب ولم تنته رغبتى فى معاودة الرجوع إليه للاستمتاع بالصورة الواضحة المشرقة التى رسمت فيه للإمام الأعظم . وللملاحظة القلم الذكى الحصيف الذى استطاع أن يبرز الملامح النفسية والعقلية والحقائق العلمية والتاريخية المتصلة بأستاذ الفقه الإسلامى الحر ، والعصر الذى ظهر فيه والعصور المتلاحقة التى تأثرت به بعد ذلك . ولن نذكر هنا تعريفا بالكتاب ولا خلاصة لبحوثه فليس فى ذلك غناء قط عن مطالعته والانتفاع بجهد صاحبه فيما كتبه وأحسن عرضه . وإنما نذكر هنا فكرة موجزة عنت لنا فى أثناء القراءة هى فى جملتها توافق الروح الذى أملى بهذا المؤلف القيم وتسير معه .

التاريخ التوجيهى :

يظن البعض أن انتصار الديمقراطيات فى الحرب الأخيرة قد أنهى عهد الوطنيات المتطرفة وقضى قضاء مبرما على كل تعصب جنسى يقوم على الغلو والأنانية وهذا الظن يحمل من الخطأ بقدر ما يحمل من الصواب . فإن التطرف فى الوطنية لا شىء فيه ما دام لا يجافى الحق ، والتعصب الجنسى لابد منه إذا كان يعتمد على المنطق ! والشرق الإسلامى فى فترته الحاضرة أحق ما يكون بالرجوع العاجل إلى تاريخه يستخرج دفائنه المغيبة عن الأبصار ، وسوف يجد بين الترب الكثير تبرا كثيرا وسوف يجد من أسباب العزة والفخار ما يفتح أمام عينيه أبواب الحياة المليئة بالترفع والمغالاة والاعتداد بالنفس . ولن يضيرنا أن نصل فى ذلك إلى حد التطرف ولا أن نوجه وسائل ثقافتنا كلها إلى هذه الوجهة ولنأخذ فى ذلك أسوتنا من وقائع

الحيـاة المعاصرة فإن الانجليز يوجهون دراسة التاريخ فى مدارسهم وجهة توقع فى أنفس التلاميذ أن التاريخ الانجليزى هو أعرق تواريخ الأرض ! ! وأن الاختراعات الانـكليزية هى أولى الاختراعات فى العالم ! ! بل إنهم يستغلون الـكنيسة المسيحية فى تلقين الجماهير المترددة عليها أن الدم الانجليزى هو الدم النقى الذى يجرى فى عروق الشعب المختار من العناية الإلهية ، وغير انجلترا من دول أوربا يصنع صنيعها فـكيف يجوز لنا أن نترك بعدئذ تاريخنا الـكبير تضل معالمه بين غيوم لا نهاية لهـا من الأهواء والأوهام ؟ ؟ .

قد لا يضير أبطالنا أن يكونوا جنوداً مجهولين ولـكن حاضرنا ومستقبلنا سيعانى الويلات من هذا الطمس والجحود ! ! يجب أن نزيح الستار عن صور عظمائنا والطريقة التى اتبعها الأستاذ الجندى فى ذلك والمقارنة الموفقة السريعة بين العصور الإسلامية وغيرها ، والتعليقات الحـكيمة التى كان يعقب بها على الحوادث ، هذه كلها لا ريب عمل يستحق الثناء المستطاب .

مذهب الارجاء :

غير أن هناك أمرا ينبغى أن نقف عنده قليلا وهو رأى أبى حنيفة فى المرجئة فإن طائفة من المؤرخين تظن أن أبا حنيفة كان يذهب مذهب هذه الفئة المتجنية على الإسلام فى تفريقها بين الإيمان والعمل واعتبارها أن أداء الواجبات وترك الجرائم أمر كمالى فى الإسلام لا علاقة له بالإيمان ، وأن المؤمن يستطيع أن يبقى محترم الإيمان مع تدنيه وتسفله كما يبقى الرجل محترم الرجولة وإن خلا من أسباب الزينة وأنواع العطور !! واتهام أبى حنيفة بذلك خطأ فادح فإن الإمام الأعظم يعتبر الإيمان قولا وعقيدة وعملا كسائر أئمة المسلمين والخلاف بينه وبينهم لفظى ينتهى فى مآله إلى حقيقة واحدة . فهو يطلق الإيمان إطلاقا حقيقيا على اليقين الذى لا يزيد ولا ينقص — كما يرى — ويعتبر العمل أثرا لهذا الإيمان خارجا عن حقيقته ولـكنه لازم له كالشروط التى تتبع ماهية الشىء حتما وإن لم تـكن جزءا منه . والذى عابه أبو حنيفة وحاربه هو مذهب الخوارج والمعتزلة القائم على سلب الإيمان عن كل من يرتـكب معصية . ولا شك أن هذا القول إحراج للنفس الإنسانية وتـكليف لها بالمستحيل وإجحاف

لما قر فيها من إيمان قوى أو ضعيف . فإن المؤثرات التى يطيش بها سلوك الإنسان كثيرة وكل بنى آدم خطاءون ومن السفه أن ينكر على المرء إيمانه لخطأ وقع فيه وقد يحدث أن تظلم النفس ، ونور الإيمان ثاوبين الجوانح ، كما يظلم النهار وتكفهر السماء فى اليوم الغائم ، ولا يستطيع أحد أن ينكر طلوع الشمس فيه ، وطبيعة الجدل من أبى حنيفة ، وهوينكر على الخوارج مذهبهم فى تقويم العمل ، جعلت البعض يفهم أن أبا حنيفة يرى العمل لا قيمة له وذاك عين الخطأ فإنه لا ينتظر من عاقل أن يهدر قيم الأخلاق والأعمال والمبادىء حين يجنح إلى القول بمذهب سقيم كمذهب الارجاء فكيف بأبى حنيفة وهو الإمام الذى قضى حياته وأقام مذهبه على تقنين القوانين لتنظيم أعمال الناس وضبط سلوكهم ؟ أى قيمة لكل ما صنع هذا الإمام إذا كان لا ضير على الإيمان فى تركه ؟ فليكن العمل شرطا للايمان خارجا عن حقيقته أو فليكن شطرا داخلا فى هذه الحقيقة فالأمر سهل ما دام العمل مقرونا به وإن اختلفت الأسماء ..

وقد عرض الأستاذ الجندى لهذه المسألة بطريقة فيها إيجاز يحتاج إلى البسط فكان لابد من التنويه . إذ أن آفة المجتمعات الإسلامية الآن أنها تغلب عليها نزعة الارجاء الخبيثة .

وضع الأحاديث :

وذكر الأستاذ فى عرض كلامه عن شيوع الوضع فى الحديث هذه العبارة « ولم يسلم أبو هريرة رضى الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبى أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد أو كلب زرع فقال : « إن أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » واعتبار كلام ابن عمر تعريضاً بأبى هريرة أمر غريب بدأ به أحمد أمين فى ضحى الإسلام ولا دليل عليه قط . لم لا يقصد ابن عمر من كلمته أن أبا هريرة سأل فى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لأن الأمر يعنى أرضه التى تخصه ؛ على أن إباحة اقتناء الكلاب للزراعة

(البقية على صفحة ٣٨)

الخطابة

العزيمة الصادقة

الحمد لله جعل العزيمة الصادقة شعار المؤمنين ، وأشهد أن لا إله إلا الله أمد عباده المخلصين بقوة الإيمان وصدق اليقين ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله المثل الكامل فى قوة الإرادة للمجاهدين الصادقين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوى القلوب الكبيرة والنفوس العظيمة ، آتاهم الله من صدق العزيمة وقوة الإرادة ما مكن لهم فى الأرض وجعلهم الوارثين .

أيها المسلمون ، الآمال العظيمة والأهداف الكبيرة لا يبلغها أصحابها ولا ينالها طلابها إلا إذا وضعوها أمام أعينهم واتخذوها هدفا لهم ومضوا إليها جادين وجاهدوا فى سبيلها راضين راغبين .

والحياة الكريمة لا تتحقق إلا للمؤمنين بها أشد الإيمان المجاهدين فى سبيلها أعظم جهاد ، ألم تروا إلى سيد المرسلين كيف نشر رسالته وبلغ دعوته ومضى فى سبيله يبلغ عن الله ويناضل عن دين الله ويربى أمة تعبد الله وتفقه معنى العبودية لله ، إنه لم يبلغ ما بلغ من النصر ولم يتم له ما تم من الفتح المبين إلا بعد بلاء شديد وصبر طويل وجهاد مرير .

ففى مكة صبر وصابر وسالم وهادن وفى المدينة ذاد ودافع وحارب وقاتل وكان يقف صلوات الله وسلامه عليه بين معارضيه ومعانديه بعظمة نفس وقوة إرادة كالسيل اندفاعا وكالجبل ثباتا وكالسيف مضاء وعزيمة حتى أتم الله عليه النعمة وأكمل له الدين (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

والمسلمون الأولون لم يصنعوا الأعاجيب . ويحققوا المعجزات ويملوا على العالم إرادتهم وينشروا فى الدنيا دعوتهم ورسالتهم ويصعدوا إلى عروش العزة ويصلوا

إلى أقصى حدود المجد والسؤدد إلا لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوهبهم ربهم قوة وثبوا بها وثبة رجفت لها أقطار الأرض فلم يبق سهل ولا وعر ولا تاج ولا عرش إلا تبدل خلقا آخر (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

أيها المسلمون — لا تطيب الحياة ولا تكرم إلا لمن صحت عقيدته فى الله والعقيدة فى الله إذا صحت دفعت المؤمن فى طريق العزة ونفخت فيه من روح الله وصححت فيه الإرادة وقوت منه العزيمة فلا يقبل الدنية فى دينه ودنياه ولا يرضى بالمنزلة الدون فى الحياة بل يكافح ويناضل حتى يكون سيدا كريما ومؤمنا عزيزا (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

وما ذلت أمة صدق عزم أبنائها ، ولا تأخر شعب آمن بحقه فمضى فى سبيله لا يثنيه عن عزمه جبروت متجبر ولا طغيان طاغية . يلقى الخطب هائلا فلا يرتاع والحدث مخيفا فلا يخاف والبلايا مظلمة فلا يضل بل يشق فى ظلامها طريقه ويتبين فى غمتها مقصده لأنه مؤمن بأن المكارم موصولة بالمكاره وأن طريق المجد محفوف بالأخطار وأن الغلب لمن ثبت إيمانه ، وقدمه عزمه ؛ وطمأنه جلده وصبره ، وآية ذلك من حديث رسول الله (واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب) .

وهؤلاء العظماء الذين عرف التاريخ قدرهم وخلد ذكرهم وتدارس من بعدهم تاريخهم وأعمالهم لم ينالوا هذه المنزلة إلا بما أسدوا لامتهم من عمل حررها من العبودية وخلصها من الذل وأنقذها من الفقر .

وماذا صنع هؤلاء الخالدون . اقتحموا الأخطار فأضاءت لهم هممهم مناهجهم وقربت لهم عزائمهم غاياتهم وحققت آمالهم : ولقد صدق أحكم الحاكمين الذى لا يضيع أجر العاملين (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون — إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) .

اعلموا أيها المؤمنون أن الإيمان ليس بالتمنى ولكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وبالإيمان يعيش الناس فى مأمن من مطامع النفوس وأضغان القلوب

فلا يتحاسدون ولا يتباغضون ولا يكيد بعضهم لبعض ، بالإيمان تقوى بين الناس الصلات وتتأكد الروابط فيعملون فى سبيل الخير متعاونين . ويسيرون إلى الإصلاح متساندين فانسوا فى سبيل الله أنفسكم واعلموا أن الله مطلع على ما يختلج فى أفئدتكم يحاسب المقصر على تقصيره ويثيب المجد على عمله وإحسانه وليقبل كل منكم على عمله مخلصا لربه ودينه جاعلا مصلحة أمته أول غايته وآخر هدفه فإن المجد لا يدركه إلا المجاهدون والنصر لا يناله إلا المكافحون والعزة لا يبلغها إلا المؤمنون ومن يؤمن بالله يهد قلبه ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدا يقوى العقيدة ويبعث العزيمة ويمنح التوفيق وأشهد أن لا إله إلا الله يهدى من يشاء إلى الطريق القويم وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله الداعى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أيها المسلمون — الإسلام دين المبادىء الصالحة والأخلاق الفاضلة والتعاليم القويمة ضمن للناس بتعاليمه الحكيمة حياة هانئة سعيدة حتى وصلوا إلى ذروة الرقى والحضارة والعمران .

فاتقوا الله وتمسكوا بتعاليمه وتخلقوا بأخلاقه وسيروا إلى غاياتكم الصالحة غير هيابين ولا وجلين ولن يتركم أعمالكم . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا . واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم .

عباد الله ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . الخ .

عبد الحميد طه

المؤمن القوى

الحمد لله يحب الاقوياء ويبغض المستضعفين واشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له كتب العزة لاوليائه المخلصين وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ذو الهمة العالية والقلب الكبير اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع سبيله القويم .

عباد الله قال صلى الله عليه وسلم (المؤمن القوى خير واحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإذا أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) .

الإيمان صورة جامعة للكمال النفسى والسمو الروحى ، وهو دستور الإنسانية السليم وهاديها الرشيد وقائدها فى الشدة والآخذ بيدها فى الحيرة ، وهو سبيل السعادة فى الدنيا وطريق الفوز فى الآخرة « وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » والناس فى هذا الإيمان درجات فمنهم قوى الإيمان ومنهم من هو دونه . فالمؤمن القوى بإيمانه عزيز الجانب منيع الحوزة ، قوى الشوكة ماضى العزيمة لاتوهنه الشدائد ولا تقف فى طريقة الملمات ، ولا تعترض سبيله النزغات فهو بإيمانه قوة وإن كان بين الناس ضعيفا غنى ولو كان بين الخلق فقيراً لا تستذله المطامع ولا تأسره الشهوات ولا تستعبده الاهواء والاغراض فإن أحب فإنما يحب لله وإن أبغض فإنما يبغض لله ، سيماه الخير وعمله للبر وهو أبعد الناس عن الشر . وكيف وقد جعل الله له من إيمانه حصنا ، ومن يقينه بالله ركنا « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ومن ينبوع إيمانه الدافق يفيض على الدنيا صفاء وسلاما ومن معين إسلامه الصافى يزيل عناء الحياة وأوضارها فحيثما وجدته وجدت المصلح الذى لا تفتر همته فهو حركة دائبة لا تعرف السآمة والملل ، ولا يعتورها ضعف ولا كسل ، وهو إذن بحق رجاء الإسلام ومعقد أمل ابنائه وبأمثاله كان الإسلام قوة أرسى فى تخوم الأرض قواعده ، ورفع فى أجواء الفضاء مناره واستظل به من آمن به ومن لم يؤمن به ولاذ بتعاليمه كل مغلوب على امره وإن لم يدن به .

أيها المسلمون — إذا كان المؤمن القوى بإيمانه خيراً لأنه سيضفى على الدنيا من إيمانه لباس السعادة والهناء ويملأها نورا وبرا ، فأن قوة الإيمان لها أثرها فى المرء نفسه بما يجعله ذا شخصية فذة تتسامى عن الخسائس والدنايا وتترفع عن الرذائل والدنس فلا يعرف ملقا ولا رياء ولا يؤمن بنفاق أو مداهنة ولا يرى من التزلف لإنسان أو أعطائه فوق ما يستحق ثمرة أو نتيجة ذلك أنه آمن بأن الله هو الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض وأنه جلت قدرته بيده مقاليد الأمور كلها لا يملك أحد معه نفعا أو ضرا أو موتا أو حياة أو نشوراً .

عباد الله — إن المؤمن إذا كان قوى العقيدة قوى البنية كان أجدى على المجتمع وعلى الإنسانية من المؤمن الضعيف فإن حياة الكسل والضعف من ابغض الأمور إلى هذا الدين ولذا استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن واعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » فاتقوا الله عباد الله وكونوا أقوياء بإيمانكم واعملوا صالحا يؤتكم أجوركم . ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اخشى ما خشيت على امتى كبر البطون ، ومداومة النوم والكسل » رواه الدارقطنى .

الخطبة الثانية

الحمد لله رسم طريق السعادة للمؤمنين وبين سبل الفلاح للعاملين . وأشهد أن لا إله إلا الله القوى العزيز . لا يغلبه غالب ، يجير ولا يجار عليه وهو الاله الواحد القهار . وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله بعث بالدين القويم والخلق الكريم اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد — فإنه إذا أجتمع لأمة قوة الإيمان . وصحة الأبدان وسلامة الأخلاق . وحسن الاستعداد لكل حالة ، سلاحها على أكتاف بنيها مصوب إلى كل من

يعاديها . شعبها قوى فى إتحاده قوى فى استعداده فإن الله يكتب لها النصر والنجاح تحقيقا لقوله تعالى « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

اللهم امنحنا هداك ووفقنا لما فيه رضاك واغفر لنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا . واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير وأجعل الموت راحة لنا من كل شر . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم .

عباد الله — إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون .

قسم المساجد

(بقية مقال « أبو حنيفة » على صفحة ٣٢)

وردت عن طريق ابن عمر نفسه فلا محل ألبتة لجعل الكلمة المنسوبة إليه نقداً لأبى هريرة ! ! . .

إنصاف :

أخشى أن يكون فى هذه الكلمة ما يغض من نفاسة البحوث العميقة التى حفل بها الكتاب أو ما ينتقص من روعة البيان العلمى الذى يترقرق صفاؤه من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة ، فما قصدت إلى شىء من هذا ! والواقع أن الكتاب ينم عن قدرة مؤلفه ورسوخ قدمه وتألق ذهنه بقدر ما ينم عن فضل الإمام الذى ترجم له وأزال غبار القرون عن صورته فبدت على ما هى عليه من مهابة وجلال .

إن المكتبة الإسلامية لتزدان بوجود مثل هذا التأليف بين أجل أسفارها وأعظمها قيمة ، وليس يسعنا إلا أن نشكر للأستاذ الجندى جهده الواسع مترقبين المزيد من ثمرات قلمه الممتع .

م . غ

المنبر العام

كتاب الشهر :

شبهات حول الإسلام

للأستاذ محمد قطب

الناشر : مكتبة وهبه . القاهرة ١٩٥٤

فى الماضى ، فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، كان الكتاب الإسلامى كتاباً « دفاعياً . يدفع التهم والشبهات عن الإسلام ، ويحمل على المذاهب المادية أيضاً ، لكن بصورة دفاعية فيها مفاخرة ومغالاة وقصور فى تناول الموضوع وأدائه والخبرة به والاستعداد له ، والأمثلة على ذلك كثيرة وفيرة فى آثار محمد عبده ورشيد رضا والبشرى ومن إليهم من الرواد[1] » . وكان أكبر نصيب لكاتب فى الدفاع عن الإسلام من حظ الأستاذ محمد فريد وجدى .

واليوم يخرج لنا كتاب آخر فى نفس الاتجاه ، الاتجاه الدفاعى . ذلك هو كتاب « شبهات حول الإسلام » لكاتب شاب هو الأستاذ « محمد قطب » وقد كتب قبل كتابه هذا كتاباً آخر فى الحقل الإسلامى ، عن « الإنسان بين المادية والإسلام » . وليس يعنينا هنا أن نعلق بشىء على هذا الكتاب الأخير ، إنما تعنينا تلك الظاهرة التى تتمثل فى أن كاتباً له القدرة على أن يكتب فى ميدان الهجوم يكتب فى ميدان الدفاع فى ذات الحين . حقيقة أننا نرى إيماضات الدفاع عن الإسلام فى ثنايا الكتب الهجومية التى تملأ الحقل الإسلامى اليوم ، ولكننا لم نر فى الفترة الأخيرة كتاباً

---

(١) العدد السابع من السنة الحادية عشرة . مقال الكتاب الإسلامى .

تخصص بالدفاع عن الإسلام بمثل القوة والضخامة التى اعتمر بهما هذا الكتاب .

لقد كان كتاب الدفاع فى الماضى — على ما أوضحناه — كتاباً فيه مفاخرة وقصور ومغالاة ، إذا ما استثنينا كتب الأستاذ وجدى الدفاعية فلم يكن فيها الكثير من ذلك . وهنا حقيقة هى ، أن كتاب الدفاع فى الماضى كان عقلياً منطقياً ، وذلك منه حسب نوع الموضوع وما يقتضيه من لون الدفاع ؛ ذلك أن الشبهات التى كان يتهم بها الإسلام فى الماضى شبهات غربية ، تتناول : هل انتصر الإسلام بالسيف أو بالفكرة؟ وهل الإله موجود أو غير موجود ؟ وهل كان محمد شورياً أو ديكتاتوريا ؟.. إلى آخر هذه الشبهات التى كان يملأ بها الغرب طريق الإسلام بالأشواك ؛ فمن الطبيعى أن يكون الكتاب الدفاعى فى رد مثل هذه الشبهات كتاباً عقلانياً منطقياً فى تناول الشبهات وعرضها ودحضها بالمقارنة والموازنة والحجة والقياس ؛ ومن الطبيعى أن يكون فيه تلك المفاخرة والقصور والمغالاة ، التى كان السبب فيها « مدى درجة الثقافة فى الفكرة الإسلامية وسواها من المذاهب المادية . .[1] » .

أما هذا الكتاب ، فقد توفر له ما لم يتوفر لكتب الدفاع الأخريات ، توفرت له ثقافة الكاتب الواعى بالإسلام وسواه ، وحسبه ذلك لكى يخلص من الروح التى يدفع لها التعصب القاصر ، روح المفاخرة والقصور والمغالاة ، وإذا كانت الشبهات التى شغلت الدفاع فى الماضى شبهات غربية ذات طابع عقلانى منطقى ، فإن الشبهات التى شغلت دفاع اليوم ، شبهة مادية ، علمية واقعية فى حياتنا اليومية ، لأنها واردة من تيار فكرة ، من المعسكر الآخر ، المعسكر الشرقى ، أو المعسكر الشيوعى بصريح الكلمات .

وكل هذه الشبهات تدور حول اعتبار أن الدين الإسلامى قد استنفد أغراضه لأنه كان يلائم طوراً بشرياً هو طور الرق ، والملكية الفردية ، والرأسمالية ، والإقطاع . طور نظام الطبقات ، والصدقات ، والعقوبات ، الطور الذى يمتهن المرأة ، وينافى الحضارة ، ويتمسك بالرجعية ، ويخنق حرية الفكر ، ويكبت دوافع الإنسان ، ويثير الطوائف ، ويعالج مشاكل الحياة بالمثالية الهاربة من الواقع الأرضى المرير .

---

(١) نفس المرجع .

وبالجملة . فالإسلام عند دعاة الشيوعية يخدر الشعوب عن الحياة ، ويجعلها قطيعاً ذلولا فى أيدى الطغاة .

ونحو هذه الشبهات ، كتب محمد قطب هذا الكتاب ، على أسس واعية من دراسة الفكرة الإسلامية وتاريخها وأثرها فى الحياة ، ودراسة الأفكار المادية فى الكفة المقابلة هناك ، ودراسة الكاتب لتلك الأسس قائمة على نظرات موضوعية للحقائق التاريخية والاجتماعية والسيكلوجية والسياسية ، وما يدين به الناس من أفكار . ونحو هذه الشبهات عقد الكاتب فصلا لكل شبهة تناولها فيه بالعرض كأى شيوعى عريق . ثم وضعها من وجهة النظر الإسلامية تحت التحليل التاريخى والاجتماعى والسيكلوجى والسياسى ، تحليلا ساخراً توفرت له الخطوط المنهجية الأساسية والمعلومات والأحداث . وإننى لأقف مشدوها من براعة هذا الكاتب . إنه فى مقال واحد يجمع كل المعلومات فى نقاط مركزة موجهة متكاملة ، مع أن موضوع المقال بهذه المعلومات ، يصلح لأن يقيم وحده كتاباً ، إذا أضيف له امتداد فى الأداء ، وتبويب فى العرض ، وتفصيل فى الأحداث .. على مايقتضيه منهج كتاب .

غير أننا لن نخدع بضخامة هذه المعلومات ، فليست وليدة نظر الكاتب وحده ، إنما هى وليدة عشرات فى نصف القرن الأخير ، فى الموضوعات التى تعرض لها الكتاب . كل كاتب قدم جزئية . وروح العصر الحديث ، والتأثر بالمنهج العلمى ، هى التى نسجت من هذه الجزئيات تلك الدراسة الحديثة للإسلام . نقول لن نخدع لأنها معلومات مقررة فعلا فى سوق التأليف ، مقررة إلى الحد الذى يكفى فيه أن تقرأ هذا الكتاب أو سواه من الكتب الإسلامية الأساسية الحديثة ، لتكون قد عرفت الفهم الحديث لفكرة الإسلام ، وما ينضوى تحتها من تفريعات . فليس هذا الكتاب ذا قيمة كبرى إلا فى تجميع المعلومات على أوسع نطاق ، وتغيير عرضها فى طريقة تناسب تفنيد الشبهات . أما الجزئية التى قدمها هذا الكاتب للفكرة الإسلامية أخيراً ، فى ذلك التفسير السيكلوجى لبعض أحكام الإسلام واعتباراته ومواقفه من الإنسان ؛ فهى وحدها ما يميز طابع التأليف الإسلامى عند هذا الكاتب عن سواه ، وما يفرق بين وجهة النظر وزاوية التناول بين محمد قطب ومن عداه ، فى تناول الموضوعات المقررة هنا وهناك .

والشىء الذى أثار ضيقنا فعلا فى هذا الـكتاب ، هو تجاهل الموارد والمصادر الأولى والأساسية التى استقى منها الـكاتب معلومات الـكتاب . إن كل كاتب قد أضاف جزئية فى النظرة الإسلامية الحديثة ، وهو أول من قررها وبرهن عليها ، فلماذا لم يقرر الـكاتب من هو صاحب تلك الجزئية وفى أى كتاب ؟ . إن تاريخ التأليف الإسلامى سيشوش بهذا التجاهل وتلك الخيانات . وتاريخ تطور الفهم للفـكرة الإسلامية سيصاب بموجة من الاضطراب بهذا التعمد والزوغان . والـكتاب بعد ليس كتاباً شعبياً يغفر للـكاتب تلك السقطات . ونحن نستطيع بحكم قراءاتنا أن نعدد عشرات من التقريرات الإسلامية الحديثة التى اجتباها المؤلف لتـكون وليدة أفـكاره فى هذا الـكتاب ، وليس له فيها من ذرة أو مثقال . ولن يقال أبداً إنها فـكرة الإسلام وليست ملـكا لأحد ؛ لأنها فى الحقيقة والواقع نظرات حديثة مستنبطة إلى حد ما من نصوص الإسلام ، استنباطا لم يكن كائناً ولا معروفاً فيما قبل النصف قرن الميلادى الأخير .

تلك حقيقة نستطيع أن نشدها إلى حقيقة أخرى فى رباط ، تلك أن الـكاتب مضيع فى معدنه الذاتى فى الأداء التعبيرى للتركيب والتقسيم الشعورى للمعانى والأفـكار . مضيع بين روح شقيقه سيد قطب الألاقة الأسلوب ، الإيقاعية الجرس والوقفات ؛ وبين روحه هو ، روحه العلمية السلسة الأداء . . . ففى أول الفصل ، وفى لحظات الانفعال ، وفى مجال التهويمات الشفيفة المنداة ، يتقطع أسلوبه السلس إلى تألق وإيقاع ، ويمتلىء أسـلوبه التقريرى الصرف بانتفاضات روح شقيقه الأستاذ . وفيما عدا ذلك يمضى محمد قطب كأى باحث مع معدنه الخاص فى التعبير والأداء .

ولسنا ندرى بعد ما هو الدافع الذى دفع الـكاتب الشاب ، فى مقال « الإسلام .. والملـكية الفردية » وحين تعرض لنظرة الإسلام عن الفرد والمجتمع ، إلى تجاهل نظرة الاشتراكية للملـكية الفردية وللفرد والمجتمع . مع أنها تتفق وفـكرة الإسلام فى هذا المجال . ومع أن الـكاتب قد تعرض لنظرة الشيوعية والرأسمالية فى ذات

(البقية على صفحة ٥٥)

مقارنات :

إلغاء الإعدام وإبقاؤه

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

نشرت جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٨/١٥ مايلى : « صرح اليوم متحدث بلسان وزارة الداخلية الهندية ، بأن الحكومة الهندية عرضت على الولايات مشروع قانون بإلغاء عقوبة الإعدام ، ويبلغ متوسط الذين يعدمون من الهند سنويا ٢٥ شخصا من عدد السكان الذى يبلغ ٣٦٥ مليونا » .

وليست الهند أول حكومة تفكر فى إلغاء عقوبة الإعدام ، فقد سبقتها إلى ذلك بعض الدول كالبرتغال واليونان وهولنده والنرويج ورومانيا والكثير من المقاطعات السويسرية ودول أمريكا الجنوبية . وقد كان القرن الثامن عشر يموج بحرب فكرية بين دعاة الإلغاء ودعاة الإبقاء ، وظلت المناقشة قائمة إلى يومنا هذا ، يشترك فى ميدانها أساتذة مصريون وبريطانيون وبلجيكيون وإيطاليون ، ولكل فريق أدلته وبراهينه ، وقد كان لهذه المناقشات المدوية أثرها البعيد ، فامتنعت بعض الدول نهائيا عن عقوبة الإعدام ، واستبدلت بها الأشغال الشاقة المؤبدة أو الحجز الانفرادى أو النفى إلى مجاهل مظلمة ، كما اضطرت بعض الدول التى ترى إبقاء العقوبة إلى إنقاص عدد الجنايات التى يعاقب مقترفها بالإعدام ، واتخذت بعض الدول وسائل مخففة لتنفيذ الإعدام ، مع أن الموت بالزهر كالموت بالفحم كما يقول أمير الشعراء .

وقد جاءت الشرائع السماوية منادية بتطبيق العقوبة ، وتنفيذها فى حالات خطيرة لايسد مسدها غير عقوبة الإعدام . فالتوراة تنص على وجوب قتل النفس بالنفس كما قال الله عز وجل : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . . » الآية . والشريعة الإسلامية تجعله زجراً للقاتل وحسما للجريمة . فقد قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم

ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » .

ونحن نعلم أن ميدان الحياة فسيح للتناحر والشجار ، وأن بعض النفوس البشرية يتعذر عليها أن تستجيب لنوازع الخير ، فقد جبلت على القسوة الطاغية ، فأغلقت آذانها عما يتردد من هتاف بالفضيلة والتسامح ومراقبة السماء . وهذه النفوس القاسية التى توغل فى الشر وتندفع إلى الدماء ، لابد أن تجد الجزاء العادل الحاسم . وإذا اعتقد القاتل أنه سيفلت من القتل بعقوبة ما ، فإن الرغبة فى الشر ستتأجج فى جوانبه والاندفاع سيبلغ أبعد مداه . ولهذا كان القتل أنفى للقتل كما يقول المثل العربى . ولعلّ أصدق شاهد على ذلك أن بعض الدول التى قررت إلغاء عقوبة الإعدام كإيطاليا ، قد عادت إلى تنفيذه وتطبيقه ، إذ هالها وأزعجها استفحال الشر وتفاقم الخطب . وصدق الله عز وجل حين قال : « ولكم فى القصاص حياة » .

ولنستمع الآن إلى أدلة القائلين بوجوب الإلغاء ، ثم نتبعها بردود معارضيهم ، ليدرك القارئ أى الفريقين أكثر اتزانا ، وأبعد عن العاطفة فى معركة تستهدف الخير والصلاح ؟ ! ! .

يقول المحبذون للإلغاء :

١ — إن القانون حين يعاقب على القتل خليق به أن يستأصله من مواده ، فلا يأمر بعقوبة يشدد عليها النكير .

٢ — إن إعدام المجرم خسارة ثانية للأمة ، فإنها ستفقد اثنين بتنفيذ العقوبة لاواحداً فقط . كما أن إعدام القاتل لن يفيد أهل القتيل .

٣ — إن العقوبة أثر من آثار الوحشية والبربرية . وليس من العدالة أن نتمادى فى تنفيذ عقوبة يتألم لها الشعور الإنسانى النبيل .

٤ — إن عقوبة الإعدام متى حكم بها ونفذت نهائيا ، فقد أصبح من المحال أن نصحح آثارها الظالمة ، إذا ثبت أن الحكم بها قد بنى على أدلة غير صحيحة وهنا تكون الكارثة كأفدح ما تكون .

٥ — إن عقوبة الإعدام هائلة مريعة ، ومن الإمكان أن نستبدل بها عقوبة أخرى ، كالأشغال المؤبدة أو الحجز الانفرادى مدى الحياة ، أو النفى إلى مطارح نازحة .

٦ — لقد لوحظ أن البلاد التى ألغت هذه العقوبة ، قد قلت بها حوادث القتل والإجرام . وكان الإلغاء نفسه أداة إصلاح .

٧ — إن عقوبة الإعدام تمنع من إصلاح المجرم ، مع أن العقاب فى وضعه الأصلى قد شرع للإصلاح والتهذيب .

هذه هى أدلة القائلين بالإلغاء . والرد عليها هين ميسور . وسنوجزه إيجازاً يحمل الحجة الملزمة والإقناع المريح فنقول :

١ — أما أن القانون الذى يعاقب على القتل خليق بأن يستأصله من مواده ، فمغالطة واضحة ؛ لأن القانون بتنفيذه الإعدام يمثل المجتمع ، والقاتل بجريمته الشنعاء يمثل نفسه وحده ، وما يحرم على الفرد لا يحرم على المجتمع . فكما له الحق فى المصادرة والغرامة والحبس ، فله الحق فى تنفيذ الإعدام .

٢ — وأما أن إعدام المجرم خسارة ثانية للأمة ، فهو غير معقول ؛ لأن استئصال المجرم كسب أى كسب . ولو استمرت حياته فلن يؤمن شره . والقول بأن إعدام القاتل لن يفيد أهل القتيل ، يتضمن إغفالا تاما للناحية النفسية لدى هؤلاء ، فلا ريب أن أحزانهم ستهدأ حين يجدون القاتل قد لقى جزاءه العادل . وإلا فلا مناص من الثأر والتربص ، مما يضطرب معه الأمن أسوأ اضطراب . وقد راعت الشريعة الإسلامية شعور ولى الدم ، فجعلت له الحق فى الإصرار على القصاص أو العفو بمحض إرادته ، كيلا يعتقد عجزه عن إدراك طلبته فتدب فى صدره عقارب الغيظ والانتقام .

٣ — وأما أن العقوبة أثر من آثار الوحشية والبربرية . ومفزعة للشعور الإنسانى . فهذا كلام تقطره العاطفة المتذبذبة ، دون أن يجد مجالا لدى الإدراك الصحيح ؛ فالوحشية تتجسم حين يعتدى القاتل على البرئ المظلوم . ولن تكون فى استئصال الشر وبتره ؛ والعاطفة المستنيرة تؤيد العقل فى محق الإجرام ، ولا تتألم لإقامة الحق . ونحن نقرأ فى الصحف أنباء المشنوقين ونسمع أقوالهم الأخيرة ، فلا نتأوه لمصارعهم العادلة ، إذ كانت فى حقيقتها حسما للداء .

٤ — وأما أن عقوبة الإعدام إذا نفذت خطأ ، فلن يُقدر على ملافاتها بحال ، فهذا قول له وجاهته السطحية ؛ إذ أن الخطأ القضائى فى هذه العقوبة نادر جداً . وقد تمر أعوام دون أن يسمع به فى شتى نواحى العالم . وقد أخذت له الاحتياطات الواقية بالرجوع إلى مفتى الجهة وإرسال أوراق القضية إليه ، على أن الشريعة الإسلامية لا تجيز الإعدام إلا فى حالة الثبوت باعتراف المتهم أو بشهادة شاهدى الرؤية . وهذا خير من ترك الأمر إلى ضمير القاضى واقتناعه كما فى قانون العقوبات الذى يعمل به الآن .

٥ — وأما أن عقوبة الإعدام هائلة مفزعة ويمكن أن يستبدل بها الأشغال الشاقة المؤبدة مثلا . فهذا فرار من شر إلى أشر منه ، بل إن بعض المجرمين ينتحرون خلاصاً من الحياة ، إذا صدموا بالأشغال الشاقة صباح مساء .

٦ — وأما أن البلاد التى ألغت هذه العقوبة ، قد قلت بها حوادث القتل ، فهذا ما يصطدم بالحقائق الواقعية ، ولا يمكن أن يتقبله عقل بتسليم وإذعان . والواقع أن البلاد التى تقل بها حوادث القتل هى التى تبقى العقوبة وليس الأمر بالعكس كما يقول محبذو الإلغاء . ولديك الهند مثلا ، فقد ثبت أنها تعدم سنويا ٢٥ شخصا مع أن عدد السكان ٣٦٥ مليونا . وإذن فقد كان الإلغاء وليد الندرة وليست الندرة وليدة الإلغاء .

٧ — أما القول بأن الإعدام يمنع من إصلاح المجرم ، فمع التسليم به ، ينبغى أن نعلم أن الأشغال المؤبدة نفسها لا تكفل إصلاح المجرم . فهل نتركه إذن حراً طليقا يعبث كما يشاء ، أو نلجأ إلى شر لابد منه وهو الإعدام .

ولعلنا بعد هذه المناقشة المنصفة ، نستطيع أن ننادى بإبقاء هذه العقوبة ، رغبة فى صلاح المجتمع ، وتنفيذاً لشريعة السماء . وليعلم المعارضون أن قانون الله لا يخضع لعاطفة جامحة ، أو يتغير بفلسفة مثالية تحتقر الواقع ، وتتجاهل حقائق الأشياء .

محمد رجب البيومى

النية وأثرها فى العقود

تنص المادة ٨٩ من القانون المدنى على ما يأتى « يتم العقد بمجرد أن يتبادل طرفان التعبير عن أرادتين متطابقتين مع مراعاة ما يقرره القانون فوق ذلك من أوضاع معينة لانعقاد العقد » .

وأول ما يسترعى النظر فى هذا النص هو قول المشرع « التعبير عن أرادتين متطابقتين » فالذى يهم المشرع — بحسب هذا النص — هو التعبير عن الإرادة لا الأرادة ذاتها وفى هذا يأخذ المشرع بمذهب الإرادة الظاهرة .

ويشترط فى هذه الإرادة أن تكون صحيحة صادرة من ذى أهلية وخالية من العيوب ، وأن تصدر من صاحبها بنية أحداث أثر قانونى هو أنشاء الالتزام ، ويترتب على ذلك بداهة أن الإرادة لا يمكن أن تصدر من شخص معدوم الإرادة كالمجنون ، ومن فقد الوعى لسكر ، كذلك لا يعتد بإرادة الهازل ولا بالإرادة المعلقة على محض المشيئة ، ولا بالإرادة المقترنة بتحفظ ذهنى فإن الإرادة فى جميع هذه الأحوال لم تتجه لاحداث أثر قانونى وقد قضت محكمة النقض بأن المقصود بالرضاء الصحيح هو كون المتصرف مميزا يعقل معنى التصرف ويقصده ، والغرض من كونه مميزا يعقل معنى التصرف ، أن يكون مدركا ماهية العقد والتزاماته فيه أما كونه يقصده فالغرض منه بيان ألا بد من إرادة حقة منه لقيام هذا الالتزام ، وقد كان المشروع التمهيدى للقانونى المدنى الجديد ينص على تطبيقين هامين فى هذا الخصوص فكانت المادة ١٢٧ منه تنص على ما يأتى « يكون التعبير عن الإرادة باطلا إذا صدر من شخص وهو فى حالة غيبوبة أو وهو مصاب باضطراب عقلى ولو كان الاضطراب وقتيا ، بحيث يكون هذا الشخص فاقد التميز » وجاء فى المادة التى تليها ما يأتى « لا يكون التعبير عن الإرادة باطلا لمجرد أن صاحبه قد أضمر غير ما أظهر ، ولكنه يكون باطلا إذا كان من وجه إليه يعلم بهذا التحفظ الذهنى .

وكذلك لا يعتد بالأرادة الصورية فقد يلجأ المتعاقدان إلى إجراء تصرف ما فى الظاهر لأغراض معينة ، وفى نفس الوقت يتفقان على أن هذا التصرف لا يقصد

منه مضمونه فيبيع أحدها للآخر عينا من الأعيان حتى يمنع دائنيه من التنفيذ عليها ، ولا يدفع المشترى ثمنا ولا ينقل البائع ملكية المبيع ، وغالبا ما يكون هذا العقد الصورى مكتوبا ، ويحصل البائع على ما يسمى « ورقة الضد » وفيها يوضح حقيقة مركزه وذلك لأنه لا يمكنه إثبات ما يخالف الكتابه ولولم تزد قيمة العقد عن عشرة جنيهات إلا بالكتابه وقد نصت على ذلك المادة ٤٠١ من القانون المدنى الجديد حيث تقول ما يأتى :

« لا يجوز الإثبات بالبينة ولو لم تزد القيمة عن عشرة جنيهات » :

(١) فيما يخالف أو يجاوز ما اشتمل عليه دليل كتابى .

وتختلف أحكام الصورية بين المتعاقدين عن أحكامها بالنسبة للغير ، فبين المتعاقدين يسرى العقد الحقيقى دون العقد الصورى وكذلك الحال بالنسبة للورثة أما بالنسبة لدائنى المتعاقدين والخلف الخاص ، فلهم أن يتمسكوا بالعقد الذى يتمشى مع مصالحهم متى كانوا حسنى النية وقد نصت المادة ٢٤٤ من القانون المدنى الجديد على ما يأتى :

١ — إذا أبرم عقد صورى فلدائنى المتعاقدين وللخلف الخاص ، متى كانوا حسنى النية أن يتمسكوا بالعقد الصورى ، كما أن لهم أن يتمسكوا بالعقد المستتر ويثبتوا بجميع الوسائل صورية العقد الذى أضر بهم .

٢ — وإذا تعارضت مصالح ذوى الشأن ، فتمسك بعضهم بالعقد الظاهر ، وتمسك الآخرون بالعقد المستتر ، كانت الأفضلية للأولين .

وعلى ذلك يستطيع المشترى من المشترى شراء صوريا أن يتمسك بالعقد الصورى وذلك متى كان حسن النية ، كما يستطيع دائن البائع فى العقد الصورى أن ينفذ على المبيع ويتمسك بالعقد المستتر ، ويثبت الصورية بكافة طرق الإثبات فإذا تعارضت مصلحته مع مصلحة المشترى من المشترى الصورى فإن الأفضلية تكون للثانى نظرا لأنه يعتمد على الظاهر .

وقد جاء فى المذكرة الخاصة بالمشروع التمهيدى تعليقا على هذا ما يأتى :

١ — ليست الصورية سبباً من أسباب البطلان . فالأصل أن يعتد بالعقد المستتر ، دون الظاهر وهذا ما يطابق إرادة المتعاقدين . ومع ذلك فقد يجهل دائنو المتعاقدين ،

وكذلك خلفهما الخاص ، حقيقة الموقف ، اعتمادا على العقد الظاهر . وفى هذه الحالة يكون لأولئك وهؤلاء ، تفريعا على حسن نيتهم ، أن يتمسكوا بهذا العقد ، إذا اقتضت مصلحتهم ذلك . فلدائن المشترى مثلا فى بيع ظاهر ، ولمن آل إليه المبيع من هذا المشترى أن يتمسكا بهذا البيع ، وعلى نقيض ذلك يكون لدائن البائع أو لخلف آخر من خلفائه ، مصلحة فى التمسك بورقة الضد ، ولكل منهما أن يفعل ذلك .

٢ — ويناط الحكم ، عند تنازع ذوى المصالح المتعارضة على هذا الوجه ، بفكرة استقرار المعاملات . فإذا تمسك دائن البائع فى العقد الظاهر بورقة الضد وتمسك دائن المشترى بهذا العقد ، كانت الأفضلية للأخير ، لإعتبارات تتعلق بتأمين ذلك الاستقرار .

٣ — أما فيما يتعلق بالمتعاقدين أنفسهم ، ومن يخلفهم من الورثة ، فوجه الحكم بين ، فليس للعقد الظاهر أثر بالنسبة لهم . ذلك أن نية المتعاقدين تنصرف إلى التقيد بالعقد المستتر ، فهو الجدير وحده بالاعتبار دون غيره . ومن التطبيقات العملية التى يمكن أن تساق فى هذا الشأن ، إفراغ التعاقد فى شكل عقد آخر ، كالهبة فى صورة البيع ، ففى مثل هذا الغرض يصح العقد بوصفه هبة لا بيعا ، متى اجتمعت له شروط الصحة بهذا الوصف ، فيما عدا شرط الشكل استثناء (أنظر المادة ٦٦٠ من المشروع) .

وقد نصت المادة ٢٤٥ من القانون المدنى الجديد على ما يأتى :

« إذا ستر المتعاقدان عقدا حقيقيا بعقد ظاهر ، فالعقد النافذ فيما بين المتعاقدين والخلف العام هو العقد الحقيقى » .

ومن ذلك يتضح أن العقد النافذ بين المتعاقدين والخلف العام هو العقد الحقيقى ، وقد يلجأ المتعاقدان إلى إفراغ الهبة فى صورة بيع فيتفق الواهب على الموهوب له على بيع الشىء الموهوب ويحددان الثمن وقد رتب المشرع على ذلك صحة العقد ولو لم يسجل فقد نصت المادة ٤٨٨ من القانون المدنى الجديد على ما يأتى :

١ — أن تكون الهبة بورقة رسمية ، وإلا وقعت باطلة ، مالم تتم تحت ستار عقد آخر .

٢ — ومع ذلك يجوز فى المنقول أن تتم الهبة بالقبض ، دون حاجة إلى ورقة رسمية . وقد جاء فى حكم لمحكمة النقض ما يأتى . « إذا كانت المحكمة قد رأت أن العقد المتنازع عليه بين الطرفين لم يقصد به البيع بل قصد به ستر تبرع مضاف إلى ما بعد الموت،وذكرت فى حكمها أنها قدحصلت ذلك من ظروف الدعوى وملابساتها ، فلا شأن لمحكمة النقض معها متى كانت الدلالات التى أشارت إليها من شأنها أن تسوغ ذلك . وإذن فلا محل للطعن عليها إذا كان سندها فى قضائها باعتبار العقد وصية ، هو عدم تسجيله وعدم دفع ثمن للمبيع المذكور به ، وعدم تنفيذه قبل وفاة المورث، وبقاؤه فى حوزته حتى وجد فى صندوقه الخاص بعد وفاته ، فإن كل ذلك جائز الاستشهاد به للنتيجة التى وصلت إليها » .

هذا من وجهة النظر القانونية ومن الوجهة الشرعية نجد أن الأساس فى إنشاء العقود هو إرادة عاقدها وقصده إلى إنشائها ولكن لما كانت الإرادة والقصد من الأمور الباطنية التى لا تحس لم يصلحا أن يجعلا مناطا لذلك ونيط إنشاء العقود بما يدل عليها فى الظاهر من قول أو إشارة أو كتابة .

ومن هذا يتبين أن كل عاقد لا بد أن تكون له نية أو إرادة ، وأنه لا بد كذلك أن يفصح عنها بوسيلة من وسائل الإظهار ، وأن إرادته هى أساس إنشاء العقود وأن وسيلته فى الإفصاح عنها ليس إلا مظهرها وصورتها فى الخارج .

ولما كانت النية أمرا باطنيا لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة صاحبها بما يصدر عنه مظهرا لها ، لم يكن فى الإمكان الاعتماد عليها شرعا فى إنشاء العقود ، ووجب أن يكون الاعتماد فى ذلك على الوسيلة التى تظهر بها هذه الإرادة لأن ذلك يدل على ما يبطنه صاحب هذه الإرادة ؛ وعلى ذلك إذا انتوى الإنسان إنشاء عقد من العقود ولكن لم تظهر هذه الإرادة بوسيلة ما فلا يترتب عليه أثر ، لأن إباحة المعاوضات مثلا حكمتها دفع الحرج عن الناس بسد حاجاتهم ، وهذه الحكمة أمر خفى ولا يمكن معرفة أن المعاوضة لحاجة أو لغير حاجة ، فاعتبرت صيغة العقد مناطا لحكمه لأنها أمر ظاهر وفى جعلها مناطا مظنة تحقيق الحكمة ، لأن الصيغة عنوان تراضى المتعاوضين بالمعاوضة ، والشأن فى تراضيهما بها أن يكون عن حاجتهما إليها ، وهذه مادة صاغتها

لجنة من القانونيين والشرعيين تنص على ما يأتى : يتم العقد بين طرفين متى صدر منهما على رضائهما من قول أو كتابة أو إشارة أو نحو ذلك مع مراعاة ما يقرره القانون من شروط معينة لصحة العقد ولزومه » .

وقد جاء فى تفسير اللجنة لهذه المادة أن العقد يوجد ويتحقق بين الطرفين بوجود الرضا منهما ، غير أنه لما كان الرضا بمعناه الفلسفى أمرا نفسيا خفيا لا سبيل إلى الإطلاع عليه ، ربط الحكم بوجوده بما يدل على حصوله وتحققه من لفظ أو كتابة أو إشارة أو نحو ذلك مما يدل عرفا ولو بالقرائن على وجوده وتحققه كالمعاطاة ، مثل أن يأخذ المشترى المبيع ويدفع الثمن للبائع من غير تكلم ولا إشارة . وغنى عن البيان أن سكوت من وجه إليه الإيجاب فى مقام التعاقد يدخل تحت الضابط المتقدم متى احتفت به القرائن الدالة على أنه سكوت ناشىء عن وفاق ورضا بما تضمنه الإيجاب كما إذا كان العرف التجارى أو ظروف التعامل تقضى بأن الموجب لا ينتظر تصريحا بالقبول ، كأن يكون هناك تعامل سابق بين المتعاقدين اتصل به الإيجاب والعقد لا يكون صحيحا إلا إذا استوفى جميع شروط الصحة التى اعتبرها القانون ككون العاقد مميزا ، والمعقود عليه معلوما للعاقدين ، إذ لا يكفى لصحة العقد مجرد تبادل ما يدل على الرضا من الجانبين بل لا بد من توافر شروط الصحة أيضا ، والعقد لا يصير ملزما للجانبين ، بحيث لا يجوز لأحدهما أن يتحلل منه ، بدون رضا الآخر إلا إذا استوفى جميع الشروط التى اعتبرها القانون للزوم العقد إذ لا تكفى صحة العقد للزومه لأن اللزوم وصف زائد على الصحة راجع إلى اعتبارات قانونية زائدة على اعتبارات الصحة ككون العاقد رشيدا .

وقد نصت المادة ١٧٤ من مرشد الحيران[١] على ما يأتى :

« يشترط لانعقاد عقود البيع والشراء والإيجار والاستئجار والشركة والحوالة والرهن والوكالة ونحوها من التصرفات الدائرة بين النفع والضرر ، أن يكون كل من العاقدين مميزاً يعقل معنى العقد ويقصده ، ولا يشترط بلوغهما غير أن عقودهما لا تكون نافذة إن كان محجوراً عليهما » .

---

(١) فقه حنفى .

كما نصت المادة ١٨٠ على ما يأتى :

« يشترط لصحة عقود التبرعات كالهبة والصدقة والوصية أن يكون المتبرع عاقلا بالغاً مطلق التصرف فى ماله ولا يشترط العقل والبلوغ فى المتبرع له بهبة أو صدقة أو وصية » قال فى التوضيح : شرط صحة بيع العاقد وشرائه أن يكون مميزاً فلا ينعقد بيع غير مميز ، ولا شراؤه لصغر أو جنون أو إغماء أو سكر ، ولا إشكال فى الصبى والمجنون والمغمى عليه ، وأما السكران فهو مقتضى ما ذكر ابن شعبان فإنه قال : ومن الغرر بيع السكران وابتياعه إذا كان سكره متيقنا ويحلف بالله ما عقل حين فعل . قال فى التوضيح إثر كلامه السابق : والذى ذكره صاحب البيان وصاحب الإكمال أن مذهب مالك وعامة أصحابه أنه لا تلزمه عقوده » . وتأول ابن رشد قول مالك فى نكاح السكران لا أراه جائزاً على أن معناه لا أراه لازما ، إنه فاسد . وعلى ذلك لا يقال فى بيع السكران إن مذهب مالك إنه غير منعقد وإنما يقال إنه غير لازم ، ومن المالكية من قال إن ما لا يتعلق به حق الله من الإقرارات والعقود إذا لم يلزم السفيه والصبى لنقصان عقليهما فأحرى ألا يلزم السكران لنقصان عقله بالسكر ؛ وما سوى ذلك مما يتعلق به حق الله يلزمه ولا يسقط قياساً على ما أجمعوا عليه من أن العبادات من الصوم والصلاة تلزمه . أما قول مالك فى عدم جواز نكاحه فليس معناه أنه عقد فاسد ، إنما معناه أنه غير لازم إن أراد الرجوع فيه وادعى أنه لا يعرف قدر ما عقده من ذلك على نفسه من أجل سكره ؛ وذلك إذا أقر له خصمه بما ادعاه ، وأما إن أنكره فلا يصدق ويلزمه النكاح إلا أن تكون له بينة أنه كان سكران لا يعقل . واختلف إن قالت البينة إنها رأت منه اختلاطاً ولم تثبت الشهادة بسكره على قوليه ، أنه يحلف ولا يلزمه النكاح ، والثانى إنه لا يصدق ولا يمكن من اليمين ويلزمه النكاح . وذهب ابن رشد إلى أن السكران قسمان : سكران لا يعرف الأرض من السماء ولا الرجل من المرأة فلا خلاف أنه كالمجنون فى جميع أحواله وأقواله فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس إلا فيما ذهب وقته من الصلوات فقيل إنه لا يسقط عنه بخلاف المجنون من أجل أنه أدخل السكر عليه فكأنه تعمد تركها . والثانى السكران المختلط الذى معه بقية من عقله وقد اختلف

أهل العلم فى أقواله وأفعاله على أربعة أقوال : أحدها أنه كالمجنون فلا يحد ولا يقتص منه ولا يلزمه بيع ولا عتق ولا طلاق ولا شىء من الأشياء . والثانى أنه كالصحيح لأن معه بقية من عقله وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة . والثالث أنه تلزمه الأفعال ولا تلزمه الأقوال فيقتل بمن يقتل ، ولا يحد فى القذف . والرابع أنه تلزمه الجنايات كالعتق والطلاق والحدود ، ولا تلزمه الإقرارات والعقود ؛ وهو مذهب مالك وعامة أصحابه ، وهو أظهر الأقوال وأولاها بالصواب .

وقد رأى جمهور الفقهاء مؤاخذة السكران بعبارته الذى لا يعى بعبارته عقابا وزجراً له ورتبوا عليها آثارها التى تلزمه . وقد قال أبو جعفر الطحاوى الحنفى « وطلاق السكران وعتاقه وأفعاله كلها وأقواله ، كأفعال الصحيح وأقوال الصحيح إلا الردة فإن زوجته لا تبين منه بهذا » .

وقد أخذ المشرع برأى بعض المالكية فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية إذ نص فى المادة الأولى من المرسوم رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ على ما يأتى « لا يقع طلاق السكران والمكره » .

هذا هو حكم السكران ، وقد تحيط بالعاقد أو بعبارته ظروف أخرى وقد يقوم الدليل على نفى أن تكون الصيغة مظنة التراضى الذى هو دليل الحاجة فما قيمة عبارته حينئذ ؟

قد تصدر العبارة من العاقد ولكنه لا يريد بها ما تدل عليه من معنى العقد ولكنه يقصد بها الهزل مع من يخاطبه أو الاستهزاء به ، أو التظاهر بما لا يريد ، ومن العلماء من جعل العبارة فى هذه الأحوال لاغية بناء على ما صاحبها من القرائن التى تدل على أنه ليس وراءها إرادة فى إنشاء الالتزام التى هى أساس إنشاء العقود وقوامها . قال أحد العلماء « إذا قال البائع أبيعك سلعتى بكذا أو أعطيكها بكذا فأجابه المشترى بما يدل على الرضا فقال البائع لم أرد البيع وإنما أردت اختبار ربحها أو كنت مازحا أو نحو ذلك فإنه يحلف أنه ما أراد بقوله أبيعكها إيجاب البيع » ، ومن العلماء من عنى هنا بالناحية الظاهرة دون النية التى لا يعلمها إلا الله وذلك حتى لا تضطرب المعاملات التى تجرى بين الناس ، فاعتبروها صحيحة صالحة لأن تكون

محققة لمعناها الذى تستعمل للدلالة عليه عادة بناء على أن صاحبها قد قصد إلى إصدارها مع كمال أهليته واختياره ، فرتبوا عليها ما تستعمل فيه ولم يعبئوا بما أراده صاحبها من تجريدها من معناها لأنه لا يملك ذلك بعد أن قضى به الشارع ، إذ ليس له تغيير ما جاء به . فإذا أتى بالسبب فى إنشاء العقد وهى صيغته لزمه حكمه ولا يفيده ما أقامه من القرائن على أنه لم يلتزمه . وبناء على ذلك أنشئوا بها ما تدل عليه من التزام حتى تستقر المعاملات بابتنائها على أسبابها الظاهرة فيطمئن الناس على معاملاتهم وتعاقدهم ، وذهب فريق آخر إلى أنه مع صلاح العبارة إلا أنه ينقصها الرضا ، وعلى ذلك لا يترتب عليها أثرها من إنشاء العقد إلا مع تحقق الرضا به بإجازتها بعد فى وقتها . واستثنى هؤلاء خمسة عقود من هذا الحكم ورتبوا عليها أثرها فى الحال . وهذه العقود هى النكاح والطلاق والعتاق والرجعة واليمين ، لما فيها من حق الله تعالى ولا يصح لذلك أن تكون محلاً للهزل ، إذ لا يجوز التلاعب بحق من حقوق الله أو جعلها محلاً للاستهزاء أو المزاح وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والعتاق » ، وفى رواية « والرجعة » بدل العتاق ومن صور الهزل حال التلجئة ؛ وهى أن يتواطأ المتعاقدان على التظاهر بإنشاء عقد أو على إظهاره بصيغة خاصة من غير أن يكون ذلك حقيقة واقعة . وقد يكون الدافع إلى ذلك دفع ضرر كأن يبيع أحدهما إلى الآخر مالا خوفاً عليه من معتد ظالم هدد البائع منهما بالانتقام منه بإتلاف هذا المال فيتظاهران بإنشاء العقد أمام الناس دون أن يقصدا بيعاً حقيقيا ، وقد يكون الدافع إلى ذلك اكتساب شهرة مثل ما يفعله البعض فى الزواج من الاتفاق سراً على مهر معين ثم يذكرون أمام الناس حين العقد مهراً آخر يزيد عن الأول ، وعند الشافعية العقد صحيح فى الحالة الأولى والمهر فى الثانية هو ما اتفق عليه أمام الناس ، أما عند الحنابلة فالعقد غير صحيح ، وكذلك الحال عند المالكية قياساً على أصولهم ، والمهر هو ما اتفق عليه سراً عند الحنفية وبعض الحنابلة والمالكية ، كما يفهم من أصولهم .

أما من تلفظ بتعبير خطأ بدل تعبير آخر فسبق لسانه بما لم يرد فلا يترتب على خطئه اللسانى أثر ولا ينشأ عنه عقد أو التزام عند الشافعية ، وخالف فى ذلك

الأحناف لأن الإرادة أمر باطنى لا تعرف إلا بما يصدر عن صاحبها دالا عليها فإن قبلنا دعوى من يدعى الخطأ فى التعبير كان هذا عونا منا على إضاعة حقوق الطرف الآخر فى العقد.

وفى ختام هذا البحث نسوق بعض ما قاله ابن القيم فى هذا الموضوع قال: « المتكلم بصيغ العقود إما أن يكون قاصداً للتكلم بها، أو لا يكون، فإن لم يقصد التكلم بها كالمكره والنائم والمجنون والسكران والمغلوب على عقله، لم يترتب عليها شىء، وإن كان فى بعض ذلك نزاع وتفصيل؛ فالصواب أن أقوال هؤلاء كلها هدر كما دل عليه الكتاب والسنة والميزان (المنطق وأقوال الصحابة).

وإن كان قاصداً للتكلم بها؛ فإما أن يكون عالما بغايتها متصوراً لها، أو لا يدرى معناها ألبتة، بل هى عنده كأصوات ينعق بها، فإن لم يكن عالما بمعناها ولا متصوراً لها، لم تترتب عليها أحكامها أيضاً، ولا نزاع بين أئمة الإسلام فى ذلك. وإن كان متصوراً لمعانيها عالما بمدلولها؛ فإما أن يكون قاصداً لها، أولا. فإن كان قاصداً لها ترتبت أحكامها فى حقه ولزمته».

هذه بعض الظروف التى رأينا الإشارة إليها فى هذا المقام، ولنا عودة.

م.ج

(بقية مقال « شبهات حول الإسلام » على صفحة ٤٢)

الأوان. ومع أن الاشتراكية لا تنبع فى هذه الأيام من بين طرفى الصراع فحسب، وإنما أيضاً تطبق (فعلا) إلى حد ما بأوروبا فى دول الشمال — على ما سجل المؤلف — وفى انجلترا ذاتها إن شاء.

ترى ألم يسمع جناب الكاتب بالاشتراكية، أم أنه رأى أن ليس فى ذكرها كبير أمل ليثبت استعلاء الإسلام المطلق على كل تجارب الإنسان؟ أما أنا فأرى فى ذكرها دليلا على عظمة الإسلام؛ إذ من أعماق الإنسان الممزق بين شقى الرحى، بين الشيوعية والرأسمالية تنبثق الاشتراكية من بين طرفى الصراع. وفى تألق الاشتراكية بين طرفى الصراع. إرهاص وتمهيد، بيوم للإسلام جديد... فى مقبل الأيام.

محمد فياض

التقنين والتصوف

التصوف كلمة كثيرة الاستعمال وإن اختلف الناس فى فهم مضمونها . فمن قائل إنها التخلِّى ثم التحلى ثم التجلى ثم التدلِّى . والتخلى هو ترك كل رذيلة . والتحلى هو فعل كل فضيلة . والتجلى هو انكشاف الحقيقة . والتدلى هو التقرب إلى الله . ومن قائل إن التصوف هو البعد والقرب . البعد معناه ترك ملاذ الدنيا وشرورها والقرب معناه ، الأخذ بطاعة الله . والرأى الغالب عند المتصوفة أن التصوف هو ترك ملذات الدنيا والدخول فى عبادة الله بالتقوى وحسن الخلق . وما اختلاف هذه التعاريف إلا أثر لمذاقهم لأحوالهم فى مقام العبودية وهى وإن دلت على شىء فإنما تدل على أهمية التصوف لأنه كلما كثرت الأسماء دل ذلك على شرف المسمى .

وصفوة القول أن التصوف من الصفاء أى تصفية النفس وتطهيرها من شرورها وكدورها .

التقنين — كلمة عربية معناها وضع القوانين وهى الأصول . والقوانين ثلاثة أنواع وهى :

أولا : قوانين إلهية أو سماوية duvine laws وهى القواعد والأحكام التى نزلت بها الكتب المقدسة لإرشاد الناس إلى خير دينهم ودنياهم .

ثانيا : قوانين وضعية positive laws وهى مجموعة القواعد الملزمة التى تنظم العلاقات بين أفراد يعيشون فى جماعة والتى يقصد بها التوفيق بين احترام شخصية الفرد ، وبين حماية الجماعة والتى يجبر السلطان الناس على إطاعتها بتوقيع جزاء على مخالفتها .

من هذا التعريف يتضح أن خواص القوانين الوضعية هى :

١ — أنها تنظم علاقات الأشخاص بعضهم ببعض ، فتفترض وجود جماعة ، إن الشخص المنعزل لا وجود له .

٢ — أنها تنظم السلوك الخارجى للإنسان ، فلا تعنى بالتصرفات التى لا تخرج

عن حيز الضمير والنية ، والتى يبحث فيها علم الأخلاق كما أنها لا تعنى بعلاقة الإنسان بخالقه فهذا يدخل فى الدين . وحتى فيما يتعلق بالتصرفات الخارجية فهو لا يعنى إلا بتنظيم العلاقات التى يرى أن تنظيمها ضرورى لحفظ كيان الجماعة ، فيترك كثيراً من تلك التصرفات الخارجية تنظمها قواعد الآداب والمجاملات .

٣ — أنها قواعد موضوعية بمعنى أن المشرع وضعها للكافة دون تحديد للأشخاص الذين تسرى عليهم ، أو تحديد للأعمال التى تطبق عليها .

٤ — أنها ملزمة أو إجبارية بمعنى أن هناك جزاءً توقعه سلطة عليا على مَنْ يخالف حكمها وهذا هو الأمر الجوهرى الذى يميز قواعد القانون عن قواعد الدين وقواعد الأخلاق .

ثالثاً : قوانين الآداب والمجاملة : Morallaws وهى مجموعة من القواعد وجد الناس أنفسهم ملزمين باتباعها طبقا لناموس أدبى يسود علاقاتهم الاجتماعية . وهذا الناموس الأدبى هو وليد المعتقدات الموروثة والعادات المتأصلة وما جرى به العرف وتواضع عليه الناس. وللدين الأثر الكبير فى تكييفه ، وكلما اقترب الدين من الحضارة كلما ارتفع المعيار الخلقى وازداد التشدد فيه . ومن ثم فكل ما يخالف قواعد الآداب فيجرح بذلك الشعور العام لا ينتج أثرا ، ومثال ذلك ، الاتفاق مع امرأة على دفع مبلغ من المال لها فى مقابل معاشرتها معاشرة غير شرعية .

هذه القوانين الثلاثة مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا لعدة أسباب أهمها : —

١ — أن القانون الإلهى مصدر كثير من القواعد والأحكام فى القانونين الوضعى والآداب . وأمثلة ذلك كثيرة منه المادة ٩١٥ من القانون المدنى ونصها (تسرى على الوصية أحكام الشريعة الإسلامية والقوانين الصادرة فى شأنها) وكذلك المادة ٨٧٥ مدنى ونصها (تعيين الورثة وتحديد أنصبائهم فى الإرث وانتقال أموال التركة إليهم ، تسرى فى شأنها أحكام الشريعة الإسلامية والقوانين الصادرة فى شأنها) ... الخ

٢ — أن القانونين الوضعى والآداب بمثابة التنفيذ من القانون الإلهى ، وذلك لأن الشرائع السماوية — وإن تضمنت كافة الأحكام الصالحة لتنظيم شئون الدين والدنيا للفرد والجماعة — يعوزها الأيدى المنفذة لأحكامها والقوة الملزمة للأفراد

بتنفيذها . لهذا اقتضت حكمته تعالى أن يقوم بتنفيذها الحكام والولاة عن طريق إصدار أوامر وقرارات ظلت فى تطور مع الزمن إلى أن صارت هذه القوانين الوضعية والآداب . مثال ذلك : يأمر القانون السماوى الناس بإطاعة ولاة الأمور بقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . اهتم القانون الوضعى بتنفيذ هذا الأمر الإلهى فأفرد بابا مستقلا فى قانون العقوبات ضمنه عقوبة الحبس أو الغرامة لمخالفة — ولى الأمر تحت عنوان (مقاومة الحكام وعدم الامتثال لأوامرهم والتعدى عليهم بالسب وغيره) .

٣ — أن القانون الإلهى له أثر كبير فى احترام الناس لقوانين الآداب : ذلك لأن الأخيرة لا تستند إلى جزاء أو عقوبة توقعها على مخالفها ، وإنما تستند إلى المعتقدات الموروثة ، والعادات المتأصلة وما جرى به العرف وتواضع عليه الناس ، فإذا كانت كل هذه المصادر ترجع فى أصلها إلى الدين تمكنت من النفوس وتركزت فى القلوب مثال ذلك : من المتعارف عليه بين الناس أن يكون ردُّ التحية بمثلها فإذا كانت التحية بخلع القبعة كان ردها بالمثل كما فى بلاد الغرب وإذا كانت التحية برفع اليد كان ردها بالمثل كما هو الشائع فى أغلب الأمم وإذا كانت التحية بالقول مثل (السلام عليكم) كان ردها بالمثل أيضا كما هو متبع عند الأمم الإسلامية التى تحافظ على تنفيذ هذه القاعدة من قانون الآداب عملا بقوله تعالى : (وإذا حُيِّيتُم بتحية فحيّوا بأحْسَن منها أو رُدُّوها) .

علاقة القوانين بالتصوف :

ذكرنا فيما سلف علاقة القوانين الإلهية والوضعية والآداب ببعضها . فما هى علاقة القانون الإلهى بالتصوف ؟

ذكرتُ فى أول الكلام أنَّ التصوفَ تركُ ملذات الدنيا وشرورها والأخذبطاعة الله وهو ما تدعو إليه القوانين الإلهية على اختلافها . وإذن تكون العلاقة بين القانون الإلهى والتصوف هى علاقة القانون بلائحته التفسيرية أو مذكرته التنفيذية ، وليس هذا معناه نقص القانون الإلهى أو قصوره عن بلوغ المراد فهو كامل من كامل وهو جامعٌ مانع من سميع عليم ، وإنما المقصود أنَّ التصوفَ قد يسلكُ سبيلا

مبالغاً فيه فى نظر العوام من أجل تنفيذ أحكام هذا القانون الإلهى ، فهو مثلا لايخاطب العوام من الناس الذين قد يُعذَرُون فى جهلهم دقائق الدين ، وإنما يخاطب الخواص الذين فهموا الشريعة وعملوا بها حتى صفت نفوسهم ، ولم يبق لهم بعد ذلك إلا التمتع بالقرب من الله والتفانى فى حبه خلافا للقانون الإلهى فهو يخاطب الناس جميعاً سواء فى ذلك الكافر والمسلم والعاصى والمطيع ويضع الأحكام للناس جميعاً فى دينهم ودنياهم فالقانون الإلهى والتصوف يتفقان فى الغاية والنهاية وإن اختلفا فى نقطة السير والبداية .

ومن ثم فيجدر بى أنْ أذكرَ بعضاً عن القانون الإلهى وبدايته وتطوره مع الزمن بالرقى والتسامى .

خَلَقَ اللهُ سبحانه وتعالى العقولَ قاصرةً لا تقوى على إدراكِ الحقائق العامة مجردةً عن المادة إلاَّ بعد تقديم مقدماتها ومعرفة العلاقة بينها حتى يمكن استخلاص هذه الحقائق العامة منها . ومن ثم كان طبيعياً أنْ تتدرج الشرائعُ السماوية فيما تضمنته من أحكام وتعاليم متمشية فى ذلك مع طاقة العقل البشرى وقدرته على فهم الأشياء والحكم عليها ، ومع تطوره بالنمو وسعة الإدراك على مر الأيام .

لهذا بدأت الشرائع السماوية تتناول المسائل الحسية المُدركَة مخاطبةً فى ذلك العاطفة والوجدان فكانت الديانةُ الموسوية عبارة عن عشر وصايا قصيرة العبارة حتى لا تملَّها النفوس البدائية ، وترمى فى جملتها إلى الحيلولة بين الفرد وارتكاب الجرائم الكبرى فتقول مثلا (لا تقتل . لا تسرق . لا تزن . . الخ) .

ولما ارتقى العقل البشرى قليلا استطاع أنْ يدرك أنَّ هناك أفعالاً ضارة بالأفراد مثل القتل والسرقة لا يليق به أنْ يرتكبها بل يجب عليه أن يتجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . لهذا نزلت شريعة عيسى عليه السلام وهى عبارة عن حِكَم وعظَات تأمر بالرحمة والعطف والمحبة والتسامح فتقول مثلا :

(إذا ضربك عدوك على خدِّك الأيمن فأَدِرْ له خدَّك الأيسر) فكانت هذه العظات والحكم محلَ رعاية وعناية الإنسان فى ذلك الوقت لأنه كان قد تهيأ لقبولها .

وأخيراً لما ارتقى العقل البشرى بعد أن استفاد من تجاربه ومشاهداته فى الحياة وعَلِمَ أنَّ هناك إلى جانب الفرد الجماعة ، وأنها تُضَار من الجريمة تضرر الفرد منها ،

بل إنها لتضَار من بعض تصرفات الفرد إذا أساء استعمال حقوقه . عند ذلك كان من الطبيعى أن يتطلب قواعد وأحكاما عامة تنظم علاقته ببقية الأفراد ، وعلاقته بالمجتمع بل وعلاقته بربه إذا توسل إليه أو اعترف له بالألوهية والتوحيد . فى هذه الآونة نزل القرآن الكريم على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً وهاديا بإذنه وسراجا منيرا ؛ فجمع كافة نواحى الحياة ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فتضمن أحكاما فى العبادات والمعاملات والتوحيد .

ومما لا شك فيه أن العمل بما أمر به القرآن الكريم والإهتداء بتعاليمه وإرشاداته يؤديان إلى تطهير النفوس من كُدُورها وهو ما تدعو إليه الصوفية . غاية الأمر أن الشريعة الإسلامية تدعو إلى هذه الغاية السامية بروحها ومعانيها لا بألفاظها ومبانيها : ذلك لأن المهمة الأولى التى نزلت من أجلها الشريعة الغراء هى الدعوة إلى التوبة أى الندم على فعل الذنوب والاستغفار ، وعدم ارتكاب الحرام بعد ذلك فإذا وضع الإنسان كتفه عند حد التوبة لم يأمن من الزلل والوقوع فى الحرام لأنه يقف عند الحد الفاصل بين الحرام والحلال ، وقربه الشديد من الحرام قد لا ينجيه من الوقوع فيه . لهذا كان من المستحب أن يترك الإنسان الشبهات خشية الوقوع فى محرم عملا بالحديث الشريف : (الحلالُ بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبينهما مُشْتَبِهَات فمَنْ اتَّقى الشبهات فقد استَبْرَأَ لدينه وعِرْضِه) .

ولما كانت النفس أمارة بالسوء فقد تحمل صاحبها على الاقتراب من الحرام إذا فعل المباح : فمن المباح مثلا أن يتريض الإنسانُ فى وقت فراغه بأن يذهب إلى حديقة يُمَتِّعُ نَفْسَهُ برياحينها وورودها ولكنه قد يرى هناك نساءً سافراتٍ سيما وأنهن فى هذا الزمان قد خَلَعْنَ براقع الحياء فأَصْبَحْنَ يتصَيَّدْنَ الرجال فى كل مكان .

لهذا تتدخل الصوفية وتستحسن التنازل عن هذا المباح ما دام فعله قد يُقَرِّبُ من الحرام ، ومن الأَحْوَطِ أن يُبَاعِدَ الإنسانُ بينه وبين الحرام . ففى فرضنا المتقدم يحسن به أن يُشْغِلَ فَرَاغَهُ ، إما بالعبادة أو بالبحث والعلم أو بزيارة مريض أو قريب وإلاَّ (فَلْيَسَعْهُ بيْتُه) .

نزل القرآن الكريم للناس كافة ولكنهم فيه يختلفون ، لا من حيث التصديق

به أو إنكاره والجحود به ، بل من حيث تذوقه وفهمه : فالقرآن لإعجازه مكوَّن من ألفاظ ومعان وروح .

أما ألفاظه فواضحة ، وأما معانيه فبالرجوع إلى التفاسير المختلفة يمكن الوقوف عليها برمتها ، وأما روحه وهى من لدن خبير حكيم ، نور على نور يهدى الله بنوره المؤمنين ، ومَنْ اهتدى إلى روح القرآن حملته فى سُلَّمٍ من معْرَاج إلى المعرفة الحقة تكريما وتعظيما ، وهذه هى بغية الدين وحكمته البعيدة ولكن لا يرى النور إلا من تنور قلبه بالإيمان واغتسل بماء الطهر والحياء . وهذا يقتضى أن يترك العبد الدنيا بما فيها من لذائذ وشرور ليدخل فى رياض العبودية والتكليف ، فى حين أن الشريعة الغراء تنهى عن ترك الدنيا بكليتها (ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

قد يفهم البعض من هذه المقارنة أن الشريعة تتمارض مع التصوف وهذا مالم أقصده بحال ، فإن التصوف جاء مؤيداً للشريعة الغراء فى كل صغيرة وكبيرة ، فهو مثلا لا يأمر المريد بأن ينسى أنه حى فهو فى حاجة إلى قوت يُحَصِّله ، وأنه يحيا فى مجتمع ، فهو فى حاجة إلى عمل يؤديه لوطنه وبنى جنسه . . الخ بل إن التصوف ليدعو مع الشريعة الغراء إلى العمل فى الدنيا للدنيا والآخرة معا مصداقاً للأثر القائل : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) . غاية الأمر أن الصوفية تفسر هذا الأثر تفسيرا عمليا ترى أنه الحق ؛ ذلك بأن الأثر مكون من شطرين : شطر يدعو إلى العمل للدنيا (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) والعمل فى هذا الشطر صنفان : عمل يتعلق بالدنيا للدنيا من تحصيل القوت وتوفير الملبس والمسكن . وعمل يتعلق بالآخرة وإن كان وقوعه بالدنيا مثل التحلى بالإخلاص فى جميع الأعمال والمساهمة فى أعمال البر والإحسان من بناء المساجد والملاجىء ومحو الأمية وتعليم العلوم الشرعية .

فأما العمل الأول فنفعه عائد على صاحبه وهو هالك ، إذ مهما أكل أو شرب أو لبس ، فمصيره إلى الفناء لا محالة . وإذن فليس هذا هو العمل المقصود من الأثر (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) لأنه يكفى من الحياة قدر الكفاف فطلب القوت يقصد به درء الموت وقديما قالوا « نحن قوم نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل » .

أما العمل الثانى فهو إما متعلق بالوطن كفتح الفتوحات ومحاربة الأعداء وقد أمرنا أن نعمل على رفعته ، وإما متعلق بالغير وقد أمرنا أن نتعاون على البر والتقوى . وإما متعلق بإقامة شعائر الدين وهو فرض لازم لذلك كانت هذه هى الأعمال المطلوبة من المكلف حتما على وجه الدوام فلا يحجم عنها بحجة أنه ميت بل يعمل لها لأنه بها تدوم ذكراه والعمل الصالح يصل صاحبه . ومن ثم كانت هذه الأعمال هى المقصودة أما الشطر الثانى من الأثر (واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) فإنه يدعو صراحة إلى العمل للآخرة إذ الموت محتمل فى كل لحظة ولذا كان من الصواب أن يتخذ المكلف أهبته ، وأن يُعد عدته للقاء ربه ، وأن يجعل من يومه شفاعة لغده ، وإن غداً لناظره قريب . من أجل ذلك قال : (كأنك تموت غدا) وقصد بذلك سرعة العمل ، وعدم التكاسل والتوانى وهذا يحمل معنى التفضيل والتقديم على العمل للدنيا .

وإذن فالأثر برمته لا يدعو بروحه إلى العمل فى الدنيا للدنيا إلا بالقدر الضرورى للحياة حتى يتبقى شىء من الجهد والوقت يقدمه المرء احتسابا لربه وآخرته ، وهذه تضحية العبد بدنياه من أجل صالحه الأخروى بغْية التفانى فى حب الله عز وجل ، ولنا فى رسول الله قدوة حسنة ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : (اللهم أحينى مسكينا وتوفنى مسكينا واحشرنى مع المساكين) .

هكذا يفضل الصوفية الآخرة على الدنيا عملا بالحديث سالف الذكر ، وتمسكا بروح الدين الذى يدعو إلى الدنيا والآخرة بحيث لا تطغى الأولى على الثانية : أما الدنيا فلأنها حق للعباد بالخيار لهم ، وأما الآخرة فلأنها واجب محتوم عليهم ، فمن تنازل عن حقه من أجل كمال واجبه فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وفهم الدين على حقيقته روحا ومعنى ، واستطاع أن يصعد إلى الرحمن فى سُلّم من الرضا والقبول حيث الفناء الأكبر ، وساحة الإطلاق الكبرى ، وحيث النور اللانهائى والفيض الإلهى ، أولئك هم المفلحون حقا لأنهم سعوا إلى الله مخلصين فكانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، تحياتهم فيها سلام والحمد لله رب العالمين .

من هذا نرى أن الصوفية — أثابهم الله — يميلون إلى التمسك بالدين روحاً ومعنى . يتمسكون بالمندوب تمسكهم بالفرض والواجب أملا فى التقرب من الله

وكسب رضائه ، فهم لذلك يبيعون حقوقهم فى الدنيا إلا حق الحياة من أجل الرحمن ورضوانه ، ولهم فى ذلك قصص كثير يطول به المقال ، منه أن أحد الصوفية ويدعى معروفاً الكرخى سأل إبراهيم بن أدهم وهو من الزاهدين قائلا : (كيف حال الزهد عندكم ؟) فأجاب أدهم : (إذا وجدنا حمدنا وإذا فقدنا صبرنا) فقال له الكرخى : (ليس هذا بزهد) فقال له أدهم : (وما الزهد عندكم ؟) قال الكرخى : (إذا وجدنا آثرنا وإذا فقدنا شكرنا) . آثرنا : أى آثرنا غيرنا علينا — شكرنا : أى شكرنا الله على نعمة الفقد .

فالصوفية — جزاهم الله عنا كل خير — يتمسكون بكل ما جاء فى الشريعة الغراء لا فرق فى ذلك بين فرض ومندوب . لذلك كانوا لشدة ورعهم وكثرة زهدهم قدوة حسنة للناس يسيرون على دربهم ومَن سار على الدرب وصل . هم أصحاب الفضل لأنهم يعملون بالمندوب والمستحب لا خشية ورهبة بل أملا فى رضاء الله بالعبودية والمذلة فقد رُوِىَ عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : (وقال لى الحقُّ تقرَّب إلىَّ بما ليس لى : الذلة والافتقار) فاللهم اهدنا إليك ووفقنا إلى طاعتك ومرضاتك .

السيد كمال الشورى
مأمور الشهر العقارى

مصير الاقطاع فى التاريخ

روى إسماعيل بن أبى حكيم قال : قال عمر بن عبد العزيز يوما لحاجبه : لا تدخلن على اليوم إلا مروانيا ، فلما اجتمعوا قال :

يا بنى مروان إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم ، فسكتوا فقال : ألا تجيبونى ؟ قال رجل منهم : فما بالك ؟ قال : إنى أريد أن أنتزعها منكم فأردها إلى بيت مال المسلمين ، فقال رجل منهم : والله لا يكون ذلك حتى يحال بين رءوسنا وأجسادنا ، والله لا نكفر أسلافنا ونفقر أولادنا ، فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم ، قوموا عنى .

الفهرس

صفحة

الدين والمجتمع ... ... للسيد أحمد حسن الباقورى ١

هداية القرآن :

الفتح المبين والفتح القريب ... ... للسيد جاد المولى سليمان ٦

هدى الرسول :

قيام الليل ... ... للسيد السيد سابق ١٢

أسرار الشريعة :

من بدع العقائد ... ... للسيد محمد الغزالى ١٨

أعلام الإسلام :

البراء بن مالك ... ... للسيد البهى الخولى ٢٥

أبو حنيفة ... ... للسيد م غ ٣٠

الخطابة :

العزيمة الصادقة ... ... للسيد عبد الحميد طه ٣٣

المؤمن القوى... ... ... ٣٦

المنبر العام :

شبهات حول الإسلام للاستاذ محمد قطب للسيد محمد فياض ٣٩

إلغاء الإعدام وإبقاؤه ... ... للسيد محمد رجب البيومى ٤٣

النية وأثرها فى العقود ... ... للسيد م ٠ ج ٤٧

التقنين والتصوف ... ... للسيد كمال الشورى ٥٦

مطابع دار الكتاب العربى بمصر

مطابع دار الكتاب العربى بمصر